عبد الستار ناصر

شـــارع المتنبـــي

كتابات في الرواية والقصة القصيرة والشعر والمكان

الكتاب: شارع المتنبي .. كتابات في الرواية والقصة القصيرة والشعر والمكان

الكاتب: عبد الستار ناصر / كاتب عراقي

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

ناصر، عبد الستار

شارع المتنبي .. كتابات في الرواية والقصة القصيرة والشعر والمكان / عبد الستار ناصر – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولي: 9 – 69 – 6772– 977– 978

أ – العنوان رقم الإيداع : 13878

شـــارع المتنبـــي

الإهداء

الخوف لغة
والمكان قدر،
وأنا بينهما أتحرك
دون خوف وبلا مكان

في مقدمة شارع المتنبي

برغم أن كتابة النقد ليست مهنتي، إلا أنني أنجزت حتى اليوم ثلاثة كتب في هذا المضمار الصعب، والحكاية كما أراها الآن، هي أنني بعد قراءة أي كتاب ممتع أو مفيد يستهويني، أجد أصابعي تكتب الهوامش حول مستطيل الكلمات المطبوعة في ذاك الكتاب الممتع المفيد وإذا ما انتهيت من قراءته أعود إلى جمع هوامشي وأعمل على ترتيب مفرداتها وإعادة كتابتها، فإذا بها كما العروس وهي تزف إلى مبدعها في ليلة ماطرة لذيذة.

***

شارع المتنبي: هو الجزء الثالث بعد "سوق السراي" و"باب القشلة" حكيت فيه عن خروج العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي من بيت الطاعة، وحكاية خالد محمد غازي مع "نساء نوبل" وعن معاناة القاص الأردني خليل قنديل وهو يكتب القصص القصيرة تحت حرارة تموز، كما أصغيت فيه إلى صهيل أسئلة المبدعة التونسية رشيدة الشارني، بعد أن فوجئت بالصديق زهير كاظم عبود في ليلة قبضه على رئيس الجمهورية، كما كتبت فيه عن القصة القصيرة في إيطاليا وولادتها هناك منذ مئات السنين.

مصحوبًا بالمتعة مضيت مع قصائد إبراهيم الزبيدي في قافلته الأخيرة نحو المجهول، كنت يومها أعزف على العود عساني أحقق بعض ما أنجزه الفنان الكبير نصير شمة الذي دخل "شارع المتنبي" من أجمل أبوابه.

***

سأقول إن متعة القراءة أكبر بكثير من لذة الكتابة، وقد تأكد لي ذلك فعلًا وأنا أقرأ (حفلة التيس) لمارجو بارغاس يوسا، وقصص غابرييل غارسيا ماركيز الضائعة، كما أذهلتني إيزابيل الليندي وهي تكتب أجمل أعمالها في رحيل ابنتها باولا، ناهيك عن الرحلة المدهشة التي قطعتها مع جورج أورويل وهو يكتب أولى رواياته المسماة "أيام بورمية".

***

عجائب بالجملة، جريمة قتل الكتاب، انتفاضة الأقصى، الحياة بعد الموت، تركات لا وريث لها، إهداءات الكتب، وغيرها من عناوين هذا الكتاب الذي أختمه بالاعتراف (أنا كاتب فاشل) وبأول محاضرة كنت أنا وحدي جمهورها، راجيًا بعد قراءة شارع المتنبي لو أنكم تحضرون.

عبد الستار ناصر ـ 2004

القسم الأول

في نقد الكتب

جورج أورويل في أول أعماله

كتبوا حياتهم بين سطور رواياتهم، وما اعترفوا بذلك حرصًا على بقية الأحياء من أبطال الرواية التي كشفوا أسرارهم في ثنايا صفحاتها وعلى ربوع زمانها وفوق عشب مكانها.

نجيب محفوظ فعلها في (قصر الشوق) و(السكرية) ثم اتضح الأمر أكثر في (بين القصرين) حتى صارت شخصية (سي السيد) إشارة إلى ازدواجية الرجال وانشطار حالاتهم بين القسوة والرقة، بين القوة والضعف، بين الصلاة والخمر، كما فعلها جان بول سارتر في (سن الرشد) و(الحزن العميق)، إلى جانب (هنري ميللر) و(جون شتاينبك) وغيرهما من كبار المبدعين.

أما (جورج أورويل) فقد فعل ذلك مبكرًا في أولى رواياته المسماة (أيام بورمية) التي صدرت طبعتها عام **1934**، بعد كتابة (حياة الفقر في باريس ولندن) مباشرة، ولم يحصل على الشهرة إلا بروايته الشهيرة (مزرعة الحيوان) عام **1944**، ثم جاءت بعدها أكثر رواياته عمقًا ورعبًا وهي (**1984**) التي كتبها عام **1948** وقلب الرقم بمعدل **36** سنة ليحكي عن نبوءته بما سيحدث في المستقبل.

جورج أورويل مواليد 1903 عاش طفولته في ولاية (بنغال) الهندية، اسمه الحقيقي (إريك آثر بلير) وقد اختفى اسمه منذ أول مقالة كتبها حتى يوم وفاته في شهر كانون الثاني من عام 1950 بعد إصابته بمرض (السل)، والغريب بشأن هذا المبدع الكبير أنه مات بعد أن رأى الطبعة الأولى من روايته (1984) ولم يعلم بما فعلته هذه الرواية من انقلاب في بريطانيا وفي أوروبا بعد ذلك.

يقول مترجم الرواية (فارس غلوب) إن التشاؤم يسود معظم روايات جورج أورويل، ونجد في (أيام بورمية) تشاؤمًا عميقًا حين ينتصر الشر في نهاية المطاف، وكانت رواية (1984) صيحة إنذار أخير أطلقها المؤلف "أيها الإنسان احذر هذا الاستبداد وقاومه بكل ما لديك من قوة قبل فوات الأوان، وإلا سيقضي على شخصيتك وإرادتك ويحولك إلى أداة غير قادرة على التفكير" صفحة 9.

معروف لدى القارئ أن جميع كتابات (جورج أورويل) تحولت إلى أعمال سينمائية، وبخاصة روايته (1984) التي تكرر إنتاجها أكثر من مرة، وقام الممثل الشهير (ريتشارد بيرتون) بدور نائب الأخ الأكبر في عمليات غسل الدماغ والتعذيب وفرض شروط الحياة التي قررها الحاكم الديكتاتور التي جاء في أول بنودها "ممنوع الحب بين الجنسين إلا بموافقة الحزب الحاكم".

(أيام بورمية) سيرة حياة أقرب ما تكون شبهًا بحياة مؤلفها، وشخصية (فلوري) هي نفسها المحطات التي مر بها (أورويل) منذ أن عمل ضابط شرطة في مدينة (بورما) أيام كانت السيادة البريطانية هي الطاغية بالقوة على مساحات شاسعة من شرق آسيا، بل تراه يعمد إلى موت "فلوري" قبل أن يصل الشيخوخة، دون أن يدري بأنه سيموت أيضًا قبل أن يكمل الخمسين من سنوات عمره!

ما يقرب من نصف الرواية اعتمد على حوارات ليست قصيرة بين شخوصها الأساسيين "فلوري، وأبوكين، وفيراسوامي، والمستر ماكغريغور، وكوباسين" وعشرات الشخصيات الثانوية التي تمر عفوًا في حياة المدينة الساخنة التي عانت من استبداد بريطانيا فترة قاسية من زمانها.

كل شيء في (أيام بورمية) مزحوم بالسواد والغبار والحرارة؛ السجون، والأسواق، والبيوت، والشوارع الفرعية، وثلاثة أرباع زمانها صيف لاهب يشوي النفوس ويزهق الأرواح حتى تشعر –أنت القارئ– بكثير من التعب وأنت تمشي بين السمك المجفف المربوط في أحزمة النسوة، وتسمع قوقوة الدجاجات في أقفاص القصب، وترى تماثيل بوذا بالنحاس الأصفر الذي تضربه الشمس فيؤذي عينيك، أسواق مكتظة بشرائح من جلد التمساح وحدوة فولاذية لثيران مخصية كفت عن الهياج، وزحام خانق لا تشم فيه سوى عرق الأجساد التي ابتعدت عن الماء والصابون، ربما أنساها الظلم والظالم كيف تعتني بمساماتها، وكيف تشعر بالنظافة

وأنت في عالم محشو بالثوم وأوراق الفوفل والقرنفل والكركم وأحشاء الخنازير تأتي في أنفك من مسافة ميل بعيد!

ما من إشارة إلى الراحة أو الغنى أو السعادة إلا في بيوت المستعمرين، ومن ثم بيوت الموالين لهم، ولعل شخصية الشرير "أوبوكين" هي البديل عن خيانات بعض أهالي (بورما) حين يعمل على زيادة أمواله بالوسائل كلها حتى إذا كان القتل إحدى تلك الطرق التي ستأخذه إلى بحبوحة أكبر برغم أنه (القاضي) على قسم كبير من مدينة "كياوكتادا" في بورما العليا!

هذه الشخصية يمكن وصفها بالديكتاتورية الصغيرة التي تعمل على النمو والتوسع وقطع الطرق أمام أي مستفيد آخر من ثروات المقاطعة التي هو قاضيها وصاحب الرأي الأول فيها، بل يعمل (أوبوكين) على شراء الضمائر والشهود إذا ما قام لاحقًا بأية جريمة أو أي فعل مشين لا يناسب مهنته التي هي أقدس المهن في أنظمة الأرض!

وبرغم المقاومة التي أبداها (جون فلوري) وتمرده على (أوبولين) نراه في النهاية وقد خسر حبيبته (إليزابيث) وبات الجميع يحتقره لأنه لم يستمر في حربه مع هذا العنصري الذي سرق أموالهم كما رمى بالعشرات منهم إلى السجون، ومن هنا يعترض بعض النقاد على افتراض التشابه بين بطل الرواية ومؤلفها (جورج أورويل) فقد أثبت أورويل شجاعته في الدفاع

عن المبادئ التي يؤمن بها وفي قتاله في إسبانيا، وكذلك في كتاباته ونضاله من أجل الفقراء.

يقول المترجم في مقدمة الرواية: إن دار نشر (غولانكز) في بريطانيا كانت تخشى من نشر هذا الكتاب لأنه قد يؤدي إلى رفع دعاوٍ عليها بالتشهير.

لكن الرواية ظهرت برغم الخوف من النتائج، بل فتحت الطريق أمام أعمال كثيرة جاءت بعدها وهي تسخر من عقلية المستعمر البريطاني، وهي بحق رواية متمردة وشجاعة، قد لا تكون بمستوى (مزرعة الحيوان) أو (**1984**) لكنها قالت ما عندها في زمن كانت الجرأة فيه بضاعة كاسدة لا أحد يشتريها أو يقترب من طعمها اللاذع المخيف!

يبقى من المهم القول: إن ثمة أخطاء مطبعية وإملائية لم ينتبه إليها الدكتور عبد الرحمن الدويب الذي راجعها، كما أن مفردة (كان) و(كانت) غطت على الرواية حتى أوشكت أن تفسدها لولا أهمية المضمون.

الخروج من بيت الطاعة

كثيرة ومتنوعة هي أعمال القاص والروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي، قصص قصيرة وروايات وكتابات في النقد، إلى جانب سيرته التي كان عنوانها "من ذاكرة تلك الأيام" إلى خط ممتد من الرسوم والحوارات والمقالات الأدبية التي ينشرها في الصحف والمجلات بين يوم وآخر.

لكن كتابه الموسوم "الخروج من بيت الطاعة" له نكهة مختلفة ومتميزة عن بقية نتاجاته، إذ يحكي فيه عن تجربته في كتابة القصة والرواية، كما يتطرق إلى المحظور والمسموح في الإبداع العربي، مع أفكار يناقشها حول العالمية والمحلية في القصة والرواية مضيفًا بعض إشاراته في طريق سيرته الشخصية دون أن يغفل الحديث عن الحرية في الإبداع والحياة.

كتاب مهم في المكتبة العربية، يقع في ثلاثمائة صفحة، تحكي قصة عبد الرحمن مجيد الربيعي وخروجه على المألوف والسائد في النص العربي قبل أربعين سنة، وجاء العنوان –الخروج من بيت الطاعة– موازيًا للمعنى الذي يؤكده الكتاب في كل فصل من فصوله التي تجاوزت العشرين، مع مدخل ونقطة ضوء ومقدمة طويلة كتبها الناشر خالد محمد غازي، جاء بين سطورها قوله:

"حققت مجموعته القصصية الأولى (السيف والسفينة) الكثير من النجاحات، وحققت روايته (الوشم) عام 1972 مكانة بارزة لكاتبها، وينبع هذا من مسألة مهمة هي المرحلة التاريخية التي تناولتها وهي مرحلة خصبة في تاريخ العراق" (ص13).

والمعروف عن الربيعي أنه لم ينصرف عن كتابة القصة القصيرة حتى بعد اهتمامه بالرواية، بل كانت كتاباته المنوعة متنفسًا ودحرًا للخوف وممارسة حرية المؤلف على الورق برغم أن ذلك أضعف الإيمان في بلد كالعراق المشجون بالقمع والاستبداد منذ مئات السنين.

يتمتع عبد الرحمن مجيد الربيع في هذا الكتاب بالشفافية والهدوء مع الكثير من الدقة والاسترخاء عكس ما ورد في كتابه السابق (ومن ذاكرة تلك الأيام) الذي تعرض فيه لأسماء أدبية لها نصيبها في تونس والقيروان وسوسة والحمامات وقليبة وصفاقس وقابس، حالة لم تكن من حالات الربيعي أيام قدم محاضراته المتشنجة في جامعة السوربون بباريس أو مدينة مكناس التي عرض فيها تجربته في كتابة "السيف والسفينة"، أو في الكويت التي استضافت كلمته عن (مداخل لاختيار شخصيات قصصية ورواياته) عام 1985.

(الخروج من بيت الطاعة) وهو خروج الربيعي عن الأساليب المألوفة في الكتابة، ولهذا يقول على الصفحة (192) "لقد أدركت منذ البداية أن أكتب (قصتي) وأن أخطو خطواتي وأن أقول (كلمتي)".

والكتاب مزدحم من صفحاته الأولى حتى آخر سطر فيه بأفكار الربيعي وتجاربه ومشاكساته ونوع أيامه التي أمضاها في الكتابة والتأليف وصناعة اسمه، فها هو يعترف على الصفحة (194) بقوله:

"الكاتب الحزبي أفضل مني، وأكثر أهمية، ذلك أن الحزب أعطاه خارطة للتحرك من أجل أن يسلك الدروب الآمنة، أما أمثالي فلا شيء عندهم غير الاعتماد على أنفسهم، وبالتالي رسم الخارطة بالصبر والإبداع دون أي إسناد من جهة أو مؤسسة أو مسؤول كبير".

وبهذا المعنى تأسس كيان الربيعي، وربما تأسس جيل كامل معه، لا يعتمد على أحد أو حزب أو مؤسسة أو مسؤول، وتلك قضية تستحق أن نرسمها أمام الحركة الأدبية في العراق منذ الستينيات وحتى يومنا هذا.

الكتاب يحكي الكثير من القصص الساخرة، عن شخصيات تتوسل النقد، وأخرى تبيع وتشتري الوجاهة، وأسماء ما كان لها أن تكون لولا سيادة أحزابها في فترة من الزمن، ثم يحكي عن نفسه وكيف عاش أعوامه في مدينة (الناصرية) وهو يحث نفسه على الكتابة وسهر الليالي من أجل أن يكون!

إنه يحكي عن أبناء جيله بصراحة مطلقة، العيوب والحسنات، الإبداع والصنعة، الحقائق والأكاذيب، الصواب والخطأ، وكل تلك (البلاوي) إنما قالها في حضرة جمهور يصغى إليه في شتى بقاع الوطن العربي دون أن يخاف لومة أحد أو اعتراضًا من حزب أو مؤسسة أو سلطان.

من أقواله التي تستحق التكرار ما جاء على الصفحة (243) حين يبادرنا فجأة بما يعتمل في عقله، إذ كتب يقول: "لم أعتد النصح من قبل، وربما أكون أنا أيضًا وبعد كل هذه التجربة الحياتية والإبداعية بحاجة إلى النصح، فليس هناك نقطة أخيرة ننشد الوصول إليها، بل إن الإبداع أفق مفتوح وما يقدمه هذا الكاتب سوف يستكمله مبدع آخر أو ينطق به مؤلف ثالث وهكذا!".

(الخروج من بيت الطاعة) عمل متواضع وجريء في الوقت نفسه، وهو يذكرني بما كتبه (كولن ويلسن) في سيرته الروائية الجريئة (نحو البداية) وكذلك بعض أجزاء مذكرات (بابلونيرودا) التي كان عنوانها (أشهد أنني قد عشت) والفارق بين كتابات الربيعي وهؤلاء العمالقة هو أنها تحتاج إلى لمسة اهتمام أكبر ورعاية أعمق لئلا تبقى محض محاضرات أمام جمهور يحب الاختصار وتمضية الوقت في أمسية عابرة سوف ينساها حين يغادر القاعة!

كان يمكن الاستفادة من إعادة كتابة هذه المحاضرات على شكل عمل واحد يدخل في باب المذكرات، وربما تبدو العملية صعبة لكن ليست مستحيلة، والربيعي يمكنه استثمار الوقت لإعادة كتابة بيت الطاعة مادام قد خرج منه، لاسيما وأنه –بحسب قوله– رجل مثابر، وبرغم العطاء الذي قدمه خلال ثلاثين سنة يقول "كأنني لم أكتب ولم أنشر وكأنني لم أتعلم!" صفحة 210.

وهذه المثابرة تأخذني إلى فكرة أطرحها عليه، هي إعادة كتابة "من ذاكرة تلك الأيام" و"الخروج من بيت الطاعة" وصهرهما في عمل واحد جديد مع حذف ما تكرر من عبارات –وهي ليست قليلة– إلى جانب العناية بتسلسل الزمن، مع إضافة الخصوصيات التي حرص على شطبها هنا وهناك من أجل الأحياء الذين يحرص على أسرارهم وعيوبهم (ربما)!

يقول الربيعي "إن لدينا فائضًا من الهموم والمعاناة كما أن لدينا فائضًا من الآمال والتوقعات، وإن إبداعنا قادر على احتوائه" وكلامه هذا يؤكد لي بأن الربيعي سيعمل على إنجاز كتاب في السيرة نحن بحاجة إليه، كما أن الزمن ما يزال بين يديه و(العجينة) جاهزة عند (التنور) ولا ينقصها أي شيء سوى الخباز الماهر.

حقًا، شعرت بمتعة كبيرة وأنا أقرأ خروج عبد الرحمن مجيد الربيعي من بيت الطاعة، لاسيما الفصل الذي يحكي فيه عن بداياته مع الشعر، وكذلك الفصل الذي ينتقل فيه من التراث إلى المعاصرة، كما أنه أبدع في (هواجس الإضافة ومشاغل البواكير) وكان كثير العناية برسالته إلى الأدباء الشباب –صفحة 235– وقد أعجبني أسلوبه في (اختيار شخصيات قصصية) إلى جانب تجربته في كتابة (الوشم) التي صارت فيما بعد واحدة من أوائل روايات السجون في الوطن العربي إلى جانب رواية (السجن) للكاتب السوري نبيل سليمان، ومن بعدهما رواية (شرق المتوسط) للمبدع العربي عبد الرحمن منيف، دون أن نغفل راية (القلعة

الخامسة) للشاعر فاضل العزاوي التي تحولت إلى فيلم سينمائي عرضوه في دمشق وبيروت.

الخروج الأخير لكاتبنا عبد الرحمن مجيد الربيعي، درس ممتع وجميل للأدباء الشبان فهو يعطي فكرة شاملة عن الصبر والمثابرة والقراءة وصعود السلالم بهدوء لئلا يقع المبدع من أول العتبة.

نساء نوبل

منذ أن انصرف "ألفريد نوبل" عام **1850** لدراسة الهندسة والكيمياء ما بين سان بطرسبرج والسويد، وهو لا يدري أن شيئًا سيئًا سيحدث في العالم بسببه، أو هذا ما قاله بعد عشرين سنة على أول تفجير قام به، دون أن يفكر بما سيحل بالأرض من خراب وحروب، وبرغم أن مفرقعات ذاك الزمان لا تشبه بشاعة الصواريخ في زماننا هذا، إلا أن المستر ألفريد شعر بتأنيب الضمير القاتل وقرر في وصيته إنشاء جائزة للسلام تُعطى سنويًا لكل من يساهم في خدمة البشرية.

ومنذ أول جائزة تسلمها "رينيه سولي برودوم" الفرنسي عام **1901** وحتى يومنا هذا، فاز بها مائة أديب، إذ حُجبت الجائزة طول سنوات الحرب العالمية الثانية، ومن بين هؤلاء فازت تسع نساء فقط كانت "سلمى لاجيرلوف" السويدية أول امرأة تفوز بها في حقل الكتابة.

وسلمى هي أصغر من فاز بجائزة نوبل في السنوات العشر الأولى من منحها، بدأت بكتابة الشعر، وحين أصابها الشلل في طفولتها جاءت الرواية لتساهم في إنقاذها من اليأس والوحشة والجزع، وكانت روايتها

"ملحمة غوستا برلنغ" سبب شهرتها العريضة إذ أطلقوا عليها لقب "العمة" التي تروي "لهم" الحكايات وكان ذلك في عام 1891.

تجارب مريرة في التمييز العنصري، واستلاب وتهميش وإذلال على مدى عصور، هي أسباب النجاح في كتابات النسوة الحاصلات على جائزة نوبل، ومع أن "نادين جورديمير" لم تكسب الجائزة لاعتبارات سياسية كما يقال، لكنها قبل وبعد فوزها كانت تدافع عن حقوق السود، ولعل روايتها المسماة "عالم الغرباء" خير دليل على حربها المستعرة من أجل الموازاة بين الأبيض والأسود، وهي التي قالت: "إننا نعيش في زمن الجنون المنظم!".

في عام 1971 نشرت روايتها "ضيف شرف" إذ اخترعت مكانًا لا يوجد إشادة إليه على خارطة العالم، لكنه يشبه تضاريس جنوب أفريقيا، وفي تلك الشعاب الشائكة نجد الكولونيل "جاري" الذي سيقوم بدورٍ في تحرير هذا المكان من استعمار البيض، ويشارك بطل استقلالها المسمى "مشينا" فيكشف عند قتل هذا الزعيم الكبير "أن حلم التحرير ما يزال محض هراء وكذب!".

وهذا الحال يذكرنا بالكاتبة نفسها، إذ ناصرت الزعيم الزنجي الشهير نيلسون مانديلا وهو في معتقله، وكتبت بهذا الشأن روايتها "المحافظ" عام 1974 ثم رواية "ابنة برجر" التي مهدت الطريق أمامها إلى أكاديمية السويد عام 1991 لتفوز بأعلى وسام أدبي في العالم.

تقول في حوار معها: "هناك بصمات خفية في ذاكرتي ترغمني على كتابة هذا النوع من الروايات إذ لا أنسى هجوم البوليس على مربيتي السوداء بتهمة مشروبات كحولية، وأيضًا عدم السماح للسود بدخول المكتبة العامة، فماذا تراني أكتب وأنا أرى الجرائم تنهمر أمامي في الطرقات؟!".

ومن اللواتي فزن بجائزة نوبل "نيللي ساخس" وهي شاعرة مغمورة لم يسمع بها أحد قبل فوزها، يهودية متعصبة، لكن الروائي الكبير استيغان زفايج له رأي آخر، فهي بالنسبة له شاعرة ثرية تلتصق بعمق مع ثقافتها وإبداعها، وقد ساعدتها سلمى لاجيرلوف في الهروب إلى السويد إبان الحرب النازية وعاشت هناك حتى موتها.

من أبرز ما كتبت ديوان شعر بعنوان "جسر الألغاز" لكنها فازت بالجائزة عن ديوانها الخطير "مسخ الكائنات" أما أفضل ما كتبت، فهو "البرج المائل" عام **1946** أي قبل فوزها بنوبل بعشرين سنة إذ رحلت عام **1966** عن مرض عضال بعد نكبتها بموت خطيبها إذ انغمرت في كتابة أشعار ساخنة عن الفقدان والحنين والأمل الذي لا يطاق.

ألفريد برنارد نوبل، مخترع الديناميت، مات في العاشر من ديسمبر عام **1896** ويقول عنه أخوه "لودفيغ" بأنه: نصف إنسان، ضئيل الجسم، وكان ينبغي أن يشرف على ولادته طبيب خبير يخمد أنفاسه ويقضي عليه يوم جاء صارخًا إلى هذه الدنيا، وهو كئيب ولا شيء مهم في حياته، وكانت رغبته الوحيدة ألا يدفن وهو على قيد الحياة ص**144**.

لكن السيد نوبل كان السبب في فوز تسع أدبيات بأفضل جائزة عالمية، وبينهن الكاتبة الزنجية "توني موريسون" التي اهمت صديقتها بالجنون والهلوسة حين أخبرتها نبأ فوزها بالجائزة، إذ لا يمكن في رأيها أن يفوز أي زنجي بهذه الجائزة الكبرى.

وكان فوزها في حينه يعني فوز المبدعات الزنجيات جميعًا واستطعن سحب البساط من عشرات الروائيين الرجال حتى أصبح عام 1993 هو عام توني موريسون، ولم يلتفت أحد إلى كرة القدم أو إلى المخنثين من المطربين وباعة الماراجوانا، فقد غلب فوزها بجائزة نوبل على أحداث ليست قليلة، بما في ذلك أخبار الساسة ورجال المال.

توني موريسون مواليد 1931 ولاية أوهايو، أوبها حداد وأمها ممتلئة بالنشاط وقوة الشخصية، أما أسلوب موريسون في الكتابة فيمتاز بالفخامة المفرطة وبخاصة في "أغنية سليمان" و"جاز" التي أخذتها فورًا إلى مدينة ستوكهولم عام 1993 لنيل الجائزة وهي في حالة فرح لم تعشها مرتين.

ومن جزيرة سردينيا نمضي إلى "جراتسيا ديليدا" التي فازت بالجائزة عام 1926 ومن المؤسف أن كتاباتها اختفت بموتها، تمامًا كما حدث مع سلمى لاجيرلوف مع أنها استطاعت بفوزها إلفات نظر الدينا إلى عظمة إيطاليا وإبداعها، وأعادت الذاكرة إلى كبار المبدعين في القرن التاسع عشر أمثال بوكاتشو ومورينا موريتي ورياتو فوتشيني ومايتو باندللو،

وهي ثاني امرأة تحصل على "نوبل" بعد انتقالها من القصص الواقعية نحو الملاحم والأساطير وبخاصة روايتها "إله الأحياء" أما بقية أعمالها فهي تدور عن مسقط رأسها "سردينيا" وكما يبدو من عناوينها، فهذه رواية "زهور سردينيا" وتلك "نصوص سردينية" وكان آخر عمل لها سيرتها الذاتية تحت عنوان "اسم كوزيما" الذي نشر بعد وفاتها ولم تسنح لها فرصة أن تراه.

جراتسيا ديليدا قارئة من الطراز الممتاز، تعترف أن أساتذتها هم شاتوبريان وفيكتور هيجو وبلزاك ودانو نتسيو وكان تأثيرهم في أدبها مرسومًا بوضوح في روايتها "البحر الأزرق" ومن بعدها "أرواح شريرة" وبرغم أن جراتسيا لم تكمل تعليمها ولم تلتفت إلى ذلك أصلًا، إلا أنها فعلت ما لم يفعله جهابذة المتعلمين من أقرانها، فقد كتبت روايتها الرائعة "ألياس بورتولو" ومن ثم "أموت أو أحبك" التي كانت أول أسباب حصولها على جائزة عمرها الذي انتهى عند الستين تمامًا.

وبعد عامين فقط تفوز الكاتبة النرويجية "سيجريد آندسيت" بجائزة نوبل، وقد ورد سهوًا على الصفحة **61** فوزها عام **1926** والصحيح هو **1928** وكانت ثلاثيتها المسماة "كريستين" أول أسباب هذا الفوز الكاسح، وكان والدها من مشاهير علماء الآثار مما جعل العائلة في بحبوحة من العيش انتهت بوفاته إذ عانت سيجريد وأمها من صعوبات مالية لم تغفل عن ذكرها في رواية "السنوات الطوال" وبعد أعوام على سنواتها الطوال اكتسبت خبرة أكبر في الكتابة وانصرفت لتأليف روايتها

التاريخية "كريستين لا فرنسداتر" التي مضت بها إلى عالم النجوم إذ قال عنها فنسان فورنييه أستاذ الأدب المقارن في جامعة "بورد" إنها تركت كل خبرتها وأوجاعها في هذه الرواية، علمًا بأن الرواية تدور في عصر "الفايكنغ" غزاة الشمال، عن تقاليدهم وأعيادهم وأسواقهم وعن نمط حياتهم وسلوكهم حتى سنوات رحيلهم بعد أن تحطمت ممالكهم في زمن ما كانت تعرفه آندسيبت لكنها عاشت فيه عن طريق القراءة!

حياة هذه الكاتبة تستحق بدورها الكتابة عنها، فقد شغفها حب القراءة ودراسة التاريخ منذ طفولتها، عاشت سنوات فقر تعلمت منها أن تكون أقوى، وكانت لها مواقفها الوطنية الجامحة إبان الحرب العالمية الأولى وما بعدها، وهي نصيرة للنساء بحثًا عن الحرية والقيم العليا وقد جاء ذلك في روايتها "السيدة مارتا" وفي مقالات أخرى ناهضت النازية وحارب العنف وخاصة عند غزو ألمانيا لفرنسا في شهر نيسان عام **1940** مما أرغمها على الهروب إلى أمريكا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ثم ماتت عن مرض خطير في بلدة "ليهامر" عام **1949** ولم تصل السبعين.

برغم الخلاف الذي ينشب كل عام حول عدالة هذه الجائزة واتهام البعض بمصداقيتها وهجوم الصحافة على أكاديمية السويد هنا أو هناك، لكنها تبقى جائزة مدهشة ومثيرة وانتظارها يشبه انتظار العاشق للمعشوق، ويكذب من يقول عكس ذلك، والذي يقرأ شروط منحها سيكف عن ضربها بحجارة الشك ومفرقعات الريبة، ذلك أن أول شروطها خدمة الكاتب للسلام والتأكيد على المثل العليا وخدمة العدل

والحرية، وشرطها الثاني أن تمنح للمبدع الذي حصل على مكانة أدبية رفيعة وأن تعطي له الجائزة عن كافة أعماله، وقد ابتعدت الجائزة عن أية إرهاصات سياسية أو حرج مع الدول الكبرى أو الصغرى، بدليل أن من فازوا بها جاءوا من كافة أرجاء الدنيا؛ فرنسا، وألمانيا، والنرويج، وأسبانيا، وبولونيا، وإيطاليا، وبريطانيا، والسويد، وبلجيكا، والهند، والدنمارك، وسويسرا، وأيرلندا، وأريكا، وروسيا، وفنلندا، وتشيلي، وأيسلندا، ويوغسلافيا، واليونان، واليابان، وأستراليا، وكولومبيا، وتشيكوسلوفاكيا "قبل انفصالها إلى دولتين"، والمكسيك، وجنوب أفريقيا، والصين، بل فازت بها حتى غواتيمالا ونايجيريا، دون أن ننسى فوز العرب بهذه الجائزة عام **1988** مع الروائي المصري الكبير نجيب محفوظ، فماذا تفعل أكاديمية السويد حتى تثبت عدالتها؟!.

حتى أنني نسيت فوز "جوزيه ساراماغو" عام **1998** وهذا يعني فوز البرتغال بها أيضًا، ناهيك عن مفاجأة السنة التي نحن فيها وما يمكن أن يحدث في الشهر العاشر إذ ستحتفل السويد بالفائز رقم **100** في حقل الإبداع العالمي!.

لكن هذه الشكوك بعدالة جائزة نوبل لم تأخذ حصتها حين فازت بها الآنسة العجوز "فيسلافا شيمبورسكا" الشاعرة البولندية التي أخبروها بفوزها ظهرًا وهي على مائدة الطعام، فما كان منها غير أن تقول: "رجاءً اتركوني أعيش في هدوء!".

وفيسلافا يعرفها القراء العرب أكثر من سواها، فقد ترجموا لها قبل فوزها في مصر وبيروت والعراق، وكان من أبرز أعمالها ديوان "الملح" عام 1962، ولها تسع مجموعات نالت عنها إعجاب القراء في كل مكان، وهي التي أيقنت يوم فوزها أنها فقدت حريتها في العزلة والتأمل، وربما كانت من القلة التي تخاف الشهرة، حالها يشبه حال صاموئيل بيكت وهرمان هسه في السلوك اليومي واعتزال الوجاهة والصحافة أو الدخول في جوقة الأضواء المريبة والخادعة.

في ديوانها المتميز "مليون ضحكة" عام 1967 ثراء فلسفي ومخيلة لا حدود لها، وبعد فوزها تكرر طبع هذه القصائد عشرات المرات بسبب حوارها الذي قالت فيه: "المنفى ليس خارج الحدود، إنه هنا في داخل النفس!" وهو ما تؤكده قصائدها في أكثر من مكان، لكنها برغم ذاك الثراء وتلك المخيلة تتمتع بالبساطة والمفردات الغنائية وكلماتها رقيقة متموجة هادئة كما لو أنها سوف تنكسر عين تنطقها.

أسماء كثيرة تجاوزتها جائزة نوبل، خوفًا من الإرهاصات السياسية، وخوفًا من حسابات الروح العسكرية وديكتاتورات الحزب الواحد، ولعل تولستوي أكبر ضحايا أخطاء الساسة، فهو يستحق الجائزة بامتياز عظيم لكنها ذهبت في وقتها إلى عملاق آخر هو الشاعر الهندي اتلشهير "رابندرانات طاغور" عام 1913 وقيل يومها: إن تولستوي يدعو في كتاباته إلى إنكار الحضارة ورفض الثقافة، كما إنه يدعو إلى الرجوع نحو

الطبيعة، وحقيقة الأمر هي الخوف على تولستوي من انتقام القياصرة إذا ما فاز بتلك الجائزة.

لكن الحال مع الكاتبة الأمريكية "بيرل بك" مختلف تمامًا، فقد جرى الاعتراض على منحها الجائزة بسبب ضعف كتاباتها، وكادت تخسر فرصتها في الفوز قبل إعلان النتائج بأسبوع واحد، لاسيما وأن "يوجين أونيل" و"روجيه مارتين" سبقاها في نيل الجائزة ومن الصعب أن تقارن بهما "كما قالت الصحافة آنذاك" لكن عام **1938** قال كلمته بشأن بيرل بك وانتهى فوزها.

قطعت سنوات طفولتها في الصين، وأكملت دراسة الجامعة في أمريكا، وعادت إلى الصين بعد زواجها، أنجبت طفلة واحدة لكنها مريضة بقصور عقلها، ولكم أوجعها أن تكون ابنتها جليسة مستشفى المعوقين وهي التي قالت: "إن البيت الذي لا أطفال فيه لا يمكن أن يكون بيتًا!".

جاءت شهرة بيرل بك بعد نشرها رواية "الأرض الطيبة" ولم يتذكر القراء بقية أعمالها، مع أنها كتبت "أبناء وانج لانج" وهي من حكاياتها الرائعة، وكذلك روايتها "العائلة المشتتة" التي يراها النقاد ثالث ثلاثيتها عن الصين، وحين يسألوها: كيف بدأتِ الكتابة؟ قالت: كنت أصعد السلالم إلى غرفتي، وهناك بدأت أكتب، ليس من شيء مخطط أمامي، لا الوقت ولا المكان، وعندما جلست للكتابة جاءني شيء بيسر وسهولة.

ولعل أجمل ما كتبته بيرل بك هو سيرتها الشخصية تحت عنوان "دنياي العديد" إذ تحكي عن المدن التي سافرت إليها مثل الهند واليابان وكوريا وفيتنام وحياتها في الصين، علمًا بأنها كتبت بعض أعمالها بأسماء مستعارة ثم عادت ونشرتها باسمها الحقيقي كما هو الحال مع "مانذالا" ورواية "الحب يبقى" مع أنها رحلت في سنة 1973 وكان آخر ما تأسف له هو التميز العنصري في بلادها البعيدة أمريكا.

أما آخر ما نتحدث عنها فهي الشاعرة "جابرييللا ميسترال" التي فتح فوزها الباب أمام الأدب اللاتيني، تأثرت بفلسفة هنري برجسون وأشعار طاغور وكانت جد شغوفة بحضارة "الإنديز" التي قدست الشمس، وهي خامس امرأة تفوز بجائزة نوبل، وكان ذلك في عام 1945 وكانت ولادتها في السابع عشر من نيسان 1889 وهي نفسها السنة التي شهدت ميلاد شارلي شابلن وطه حسين وجواهر لال نهرو وعباس محمود العقاد وغيرهم من شخصيات ذاك الزمان.

وجابرييللا عملت في الصحافة والتدريس ثم أحبت شابًا إلى حد الجنون وإذا به ينتحر، مما أصابها ذلك بحالة من شجن متدفق كان السبب وراء ديوانها "أجراس الموت" وقد اشتغلت في السلك الدبلوماسي وعملت في عصبة الأمم وحصلت على أكثر من شهادة دكتوراه فخرية في أوروبا وأمريكا.

ربما اشتهرت بكونها شاعرة، لكنها تكتب الرواية والمقالة أيضًا، وقد أصاب الناقد الفرنسي "كلودفيل" حين قال إن المأساة والفواجع هما عمود الشعر في حياة جابريللا مسترال، فقد انتحر حبيبها مبكرًا ثم انتحر ابنها، وجاءت الفاجعة الثالثة يوم انتحار المبدع استيفان زفايج الذي كان قريبًا منها والذي فاز بإعجابها أكثر من أي أديب آخر في تشيلي والبرازيل، إذ إنه لم يحصل على الجائزة فقد رحل بسرعة عن الدنيا ولم يلتفت إلى الوراء حتى يرى ما جرى بعد غيابه!.

نساء نوبل، لمؤلفه خالد محمد غازي، من الكتب التي نحتاجها لتسخين الذاكرة، فهو يحكي عن كوكبة من النساء دخلن التاريخ من أجمل أبوابه، وكان حضورهن في العالم خدمة حقيقية للقيم العظيمة وخدمة أصلية للعدل والمساواة والسلام، ويبدو أن ديناميت ألفريد نوبل، ومنذ مائة وثلاثين سنة تمكّن أيضًا من تفجير المواهب الكبرى وتركها في سباق شريف نحو القمة، ولا أدري لماذا لا يشعر أمثاله من القتلة بتأنيب الضمير حتى تزداد الجوائز العالمية؟ مع أن اسم نوبل لم تستطع أية قنبلة نسف ذكراه، وهذا ما سوف يستفيد منه عتاة الطغاة عبر التاريخ لو كانوا يدركون.

أتذكر قول الطيب صالح عن جائزة نوبل "من يسعى إليها كمن يركض نحو سراب" والحقيقة بعد كل ما رأينا وقرأنا، فالجائزة ليست سرابًا بل هي نقطة ضوء يمكنها أن تسكت أنياب الظلام حتى لو كان ذلك لمرة واحدة في كل عام.

إنها حفلة التيس

ماريو بارغاس يوسا، من المبدعين الكبار في كتابة الرواية، واسم في ميزان الجوائز العالمية برغم أنه لم يحصل بعد على جائزة (نوبل) لكنه روايته الأخيرة (حفلة التيس) قد تأخذه إلى أكاديمية السويد ذات عام قريب جدًا.

يدخل (ماريو بارغاس) إلى عالم متشعب عسير المنال، يحكي فيه عن الحكم الديكتاتوري في الدومنيكان من عام 1930 حتى سنة 1961 أيام حكم الجنرال "رافائيل ليونيداس ترخييو مولينا" الذي حمل من الصفات والألقاب أكثر مما حمله أقرانه من الرؤساء في تلك الحقبة من الزمن، فهو الزعيم، وهو المنعم، وصاحب الفخامة، وأبو الوطن، والجنراليسمو، والمهندس الأول، ومستعيد الاستقلال، والرئيس الموقر، وعشرات التأهيلات التي جعلته في مصاف الأولياء والقديسين.

الرواية تبدأ بعودة بطلة القصة (أورانيا) ابنة السيناتور أغوسطين كابرال الذي كان من أقرب المقربين إلى الديكتاتور (تروخييو) جاءت من أمريكا بعد غياب دام ثلاثين سنة بسب أنها ضحية من ضحايا ذاك الحكم الاستبدادي المتوحش، إذ تبرع والدها بإهدائها إلى الجنرال المتسلط حتى يتمتع بها جسديًا من أجل إرضاء نزواته، وبالتالي من أجل البقاء في السلطة، عادت (أورانيا) إلى بلدها بعد مقتل الطاغية ورحيل نظامه

الفاسد، فماذا رأت بعد هذا الزمن الطويل من الغربة والحنين؟ لا شيء، لم يتغير العالم كثيرًا من حولها، فالنفوس محطمة والساسة على حالهم من الطغيان وإن كان ذلك بدرجة أقل، فقد ترك الطاغية (تروخييو) خرابًا في داخل الروح من الصعب أن يزول إلا بمعجزة، إنها تشعر كما لو أن الديكتاتورية مرض خطير يتناسل في بلادها.

منذ اغتيال (تروخييو) الوحش والناس في حالة من الفرح العميق، لكنه فرح ناقص، فما زالت سلطة الطيش والقتل تفتك بالناس البسطاء، ولم تزل أذناب الماضي ترتع في الدومنيكان بوسائل مختلفة مما يؤكد على أن فايروس التسلط أصاب الجميع وصارت البلاد كلها في قبضة المرض الذي يحوم حول كرسي العرش، فهكذا هي السياسة –كما يقول تشير ينوس شاعر الطاغية ومستشاره العبقري– إنها شق الطريق نحو مزيد من الجثث!

ولما كانت السياسة شق طريق بين الجثث، نجد (تروخييو) أكثر الناس ريبة بأقرب مساعديه، إنه يعرف الخونة منهم حتى قبل أن يكتشفوا هم أنفسهم بأنهم يخونون (صفحة 27) لذلك استولى على خصوصية كل واحد منهم، بما في ذلك ممارسة الجنس مع زوجاتهم، بل التباهي أمامهم بأنه فعل ذلك، دون أن يعترض أي وزير أو مسؤول منهم، فقد سقط الجميع في (فخ) العبودية القصوى وانتهى الأمر!

الديكتاتور (تروخييو) قلعة من ورق، أسد من رذاذ، تمثال من شمع تحت الشمس، لكنه في أيام حكمه التي دامت أكثر من ثلاثين سنة تمكن من السيطرة على اقتصاديات (الدومنيكان) كلها من أجل ترسيخ نفسه ونفوذه على الحياة اليومية للناس والأسواق معًا، فهو (أطلس التجارة) كما يشتهي أن يُقال عنه، إذ سيطر على شركة التبغ وعلى مؤسسة القطن وعلى صناعة الشيكولاتة، كما تم له شراء حصص مصنع الزيوت النباتية، ومصنع الأسمنت ومصنع الأسطوانات، وكذلك مصنع البطاريات والأكياس والحبال والخردوات والمعدات البحرية، بل سرق وفي وضح النهار امتياز مؤسسة تصنيع الحليب، وصناعة الخمور، وصناعة الزجاج والورق والمطاحن والدهون وإعادة صنع المطاط وتكرير الملح وصناعة المنسوجات والألبسة، كما سيطر كليًا على شركات التأمين، والعقار، والصحف الرسمية، وما ترك أي شيء لبقية التجار والوزراء والمسؤولين، حتى أنه مسك بيد من حديد على معامل صناعة الأحذية والملابس الداخلية وغيار السيارات والزوارق البحرية وعطور النساء!

لقد أصبح (تروخييو) بعبع الدومنيكان وأخطبوطها الذي لا يشبع من مال وجاه وموبقات، حتى وصل به الأمر أنه أطلق على البلاد اسم (مدينة تروخييو) والأمر نفسه مع الجسور والمستشفيات والشوارع والمدارس والطرق الخارجية، كلها تحمل اسم (المنعم على الوطن) أو اسم أمه (السيدة السامية) حتى كأنه اشترى البلاد من أقصاها إلى أقصاها وصارت مجرد مزرعة أو ضيعة خاصة يسرح فيها ويمرح دون رقيب ولا نذير!

هذه الملامح العجيبة لفترة حكم (رافائيل ليونيداس تروخييو) هي جمرة أفكار الرواية المذهلة التي كتبها ماريو بارغاس يوسا، فهي البديل الموضوعي لديكتاتوريات أخرى ظهرت وما تزال تظهر هنا وهناك على خارطة الكرة الأرضية، وكلها تشير إلى خيوط العنكبوت الذي يلملم (بيته) ببطء مسموم وهدوء كاذب حتى ينتهي من البناء ليبدأ باصطياد الضحايا، وهل من بيت أوهى من بيت العنكبوت؟ لكنها لعبة خبيثة تتكرر في كل زمان ومكان وذاك هو (العجب) الذي لا جواب له!

لقد وصل الأمر بالمقربين منه، أنهم تحولوا إلى سماسرة وإلى نوع من الخدم، حتى إن أقربهم إلى (تروخييو) وهو (مانويل ألفونسا) يقول عن نفسه بلا خجل أو تردد "أشعر بالفخر أن يقال عني قوّاد الزعيم فأنا كذلك فعلًا وأفخر به" صفحة "295" فأي مسخ صار المواطن في زمن الديكتاتورية البغيضة؟ وإذا كان مانويل هو قوّاد الزعيم فماذا سنقول عن رئيس مجلس النواب وقد أعطى ابنته الوحيدة إلى (أبي الوطن) دون أن يسأل نفسه: وماذا بقي لنا من كرامة؟ بل يصل الحال إلى أقصى الفانتازيا حين يفكر (تروخييو) بالشعار المرفوع أمام الشعب الذي جاء فيه (الله ثم تروخييو) وهل يمكن اختيار شعار أفضل؟ حتى أنه حذف الوطن وكذلك الشعب من شعار الدولة!

المأساة في الرواية لا تكمن في الديكتاتور المعبود من ثلاثة ملايين إنسان هم شعب الدومنيكان في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين فقط، بل المأساة في العسكر واستخبارات الجيش ورجال الأمن

والمخابرات، فقد أمعنوا في الخضوع إلى حد أنهم أغفلوا أنفسهم بعد أن ضاعت الحقائق بين الرعب والخوف الذي أصاب الجميع وما عاد من أحد يدري كيف يكون الرجوع إلى الذات، فقد انتصر عليهم (الجنرال) يوم أن زرع الخوف حتى في ثيابهم الداخلية ويوم أوحى إليهم أن كل واحد منهم ثمة رقيب عليه!

وليس تروخييو وحده من عاث فسادًا في دولة الدومنيكان الصغيرة، بل شاركه أولاده (رامفيس) و(راداميس) في الجنون واغتصاب الفتيات الصغيرات، حتى أنهم يتعاملون مع البشر جميعًا كعبيد لهم، وكان رامفيس يأخذ الفتاة العذراء ويأتي بشلة الأصدقاء للتمتع بها تباعًا دون أي حساب لعائلتها، ودون أي ردع من القضاء أو العقاب السماوي، فالبلاد كلها تحت سيطرتهم والناس تلهث مثل الكلاب خوفًا من بطشهم وما كان من أحد يصدق أن هذا الفرعون الفاسد سيقتل (هكذا) ذات يوم، لكنهم قتلوه حتى صار جسده كما الغربال من كثرة الرصاص الذي نخر عظامه وجلده، وتركوه محض (شيء) ليس من أثر فيه يشير إلى (الزعيم) أو (الجنراليسمو) الذي زرع الهلع في النفوس أكثر من ثلاثين عامًا.

سأقول: إن (ماريو بارغاس يوسا) اشتغل في رواية حفلة التيس بشغف حقيقي وبمسؤولية تاريخية يُحسد عليها، كان ينقب عن الحقائق مثل علماء الآثار ما إن يجد قطعة تعود إلى مسرح روايته حتى يمضي حثيثًا إلى قطعة ستليها حتمًا، وهكذا حتى يصل إلى الكنز المخبأ تحت طيات

المجهول، وقد كانت أول قطعة عثر عليها هي أغنية شعب الدومنيكان التي يقول فيها.

"الشعب يحتفل بحماس كبير

بعيد التيس في الثلاثين من أيار".

لقد قتلوا التيس

وأعتقد جازمًا أن مرض الديكتاتورية تجاوز الأمراض جميعها في الخسائر البشرية بما في ذلك الإيدز والسرطان والكوليرا، والشاهد على ذلك (التيس)!

فتحية العسال في حضن العمر

لم أقرأ لكاتب عربي سيرته الشخصية إلا وكان فيها ما يخاف من طرحه أمام الأحياء ممن يعرفونه، ربما حرصًا أو خوفًا أو خجلًا من شيء لا يريد كشفه (الآن) لئلا يغضب منه الأحباب والأصدقاء ومن يعنيه الأمر.

والكاتبة المصرية المبدعة (فتحية العسال) في كتابها الجميل المؤثر (حضن العمر) قد تكون أكثر هؤلاء الأدباء خوفًا وحرصًا على مشاعر من تحب وتعرف، لذلك قالت، أو كتبت ما كان عليها أن تقول وتكتبه وهي تشطب على جزء كبير من أسرارها وخبايا حياتها الشخصية، ولها الحق في ذلك، فما زلنا –نحن العرب– على غير وفاق وغير انسجام مع الاعترافات التي نقرأ فيها ما ليس بوسعنا أن نقوله عن أنفسنا.

في مرحلة جد عسيرة من حياتها لم تكنْ تقوى على كتابة شجونها أو اعترافاتها، مع أنها كما يعرف الجميع في مصر العربية، واحدة من القلة اللاتي قارعن الظلم والهمجية ومجازر إسرائيل، وكان لها نصيبها في المظاهرات والاعتراضات ورفع العلم العربي فوق السحب البيضاء وهي تصرخ في الشوارع تطالب بعالم من المساواة والحرية والسعادة، لذلك وكما تقول في المقدمة "كنت أتردد كثيرًا في البوح حتى أمام نفسي،

أخاف البوح عن إحساسي بالمهانة لما حدث في طفولتي وفي مراهقتي بفعل التخلف الذي كان سائدًا حينذاك" صفحة 5.

وقد كتبت فتحية العسال مذكراتها باللهجة المصرية المحكية، فهي كما تعترف لا تمتلك القدرة البلاغية على الفحص، وبخاصة في حالة الطوفان التي عاشتها في طفولتها وصباها وانطلاق أنوثتها المبكرة، وقد اعتذرت القراء على الصفحة (11) أن تكتب كما تشاء أو أن تكتب الحياة (حياتها) كما عاشتها، وما دامت اللهجة العامية هي التي نطقت بها، فما كان عليها غير أن تكرر ذلك في كتابها الناعم الحزين "حضن العمر" الذي قالت فيه أكثر مما كان منتظرًا منها أن تقول!

هنا لا بد أن نتذكر، برغم غرابة الموضوع وصعوبته نسبيًا، أن فتحية العسال لم تحصل على الشهادة الابتدائية، والأعجب من ذلك هو أنها لم تتجاوز الصف الثاني ابتدائي يوم أخرجها والدها محمود العسال من المدرسة خوفًا على أنوثتها الطافحة الطافرة المبكرة من نظرات الشباب إليها، وبرغم توسلاتها ودموعها في أن تستمر في تحصيل العلم والمعرفة وفك الحروف، إلا أن ظروف المجتمع آنذاك غلبت الأب على أمره ورفض –بالثلاث– خروج ابنته فتحية من البيت مهما كانت الأسباب، بل ترك أمرها لشقيقها الكبير (حسني) الذي أغلق عليها النوافذ والشبابيك وفرض أوامره المتعسفة في أن تبقى فتحية داخل البيت مثل أي سجين تحت الأرض!

لكن الحياة تحتاج إلى جرأة وبطولة واختراق وتضحية حتى تأخذ مداها وعنفوانها وطريقها الصحيح، ومن هذه الأبواب استطاعت فتحية العسال أن تحتال على زمانها وأهلها بالخروج من البيت تحت أعذار تبتكرها يومًا بعد يوم حتى رماها القدر الغرائبي إلى جانب الكاتب الكبير عبد الله الطوخي أيام كان في أولى سنوات يفاعته وشبابه، فأحبها حقًا وأحبته بكل ما تملك من يأس وخوف وجنون حتى تحقق حلمها في الزواج منه، وتلك هي القصة التي أخذت من كتابها ومذكراتها أكثر من نصف سيرتها الذاتية في الجزء الأول والثاني وكلاهما صدر في هذه السنة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أول قصة قصيرة كتبتها فتحية العسال كانت عن أختها (نجيبة) التي زوجوها من رجل لا تحبه والتي عاشت على أمل وحيد في حياتها هو أن تأخذ الحياة ذات يوم مسارها المستحيل وتنتهي من الرجل الذي فرضوه عنوة عليها، عسى أن تعود إلى الإنسان الذي أحبته منذ طفولتها، وكان لها ما حلمت به، لكن بعد عذاب عظيم.

الموروث الشعبي والعادات والطقوس المصرية كان لها حصة الأسد في مذكرات فتحية العسال، وقد حكت عن ذلك بأسلوب بسيط وممتع يغوص إلى أعماق النفس، وسوف يرى القارئ كم كانت فتحية على حق حين كتبت سيرتها الذاتية باللهجة اليومية المحكية، إذ حققت بها الوصول إلى مشاركة القراء أحزانها وأفراحها ومتاعبها وأفكارها بعد أن تركت

أمام أيديهم كميات ليست قليلة من الحرمان والخوف والهواجس التي سلبت منها أثمن ما في طفولتها من طمأنينة ورغبة في الدراسة والتعليم.

لا أحد يصدق، لولا هذه المذكرات والاعترافات، أن فتحية العسال هي من علمت نفسها بنفسها القراءة والكتابة، وحين عرفتُها شخصيًا أيام دراستي في مصر كنت أظنها قد حصلت على الماجستير والدكتوراة من أبرز جامعات الدنيا، لكنها غلبتني على ظنوني وهي تعترف بحجم ما ملكت من حروف وسطور ونقاط، وسأعترف أن اعترافاتها أوصلتني إلى حالة من البكاء السعيد.

قبل وفاته بفترة وجيزة، كان عبد الله الطوخي يتمنى على فتحية العسال أن تكتب سيرتها الشخصية مهما كانت المعوقات، وقد قالت له: "أعدك يا عبد الله بأنني سوف أكتبها يومًا ما، كما أعدك أيضًا أن أتسلح بالصدق والصراحة في كل كلمة سأكتبها، وحين انتهى منها سيكون الإهداء لك".

كان ذلك ليلة السادس عشر من تشرين أول عام **2000** حين كان عبد الله الطوخي طريح الفراش في مستشفى (معهد ناصر) قبل وفاته بأيام قليلة، ومذكراتها ظهرت إلى القراء في سنة **2002** أي أنها أوفت بوعدها بسرعة، لكن الإهداء لم نجده على أية صفحة من صفحات الكتاب، لماذا؟ هل حدث سهوًا سقوط ذلك الإهداء الذي وعدت به –أعني هل كان

خطأ مطبعيًا مثل بقية ما نرى من أخطاء في الكتب العربية حصرًا– أم تغير شيء ما في الروح والنفس معًا؟

ترك لها زوجها الراحل عبد الله الطوخي أجمل الذكريات وأحب الأبناء حتى وصل عدد أحفادها وأولادها خمسة عشر (جوهرة) هم أغلى ما بقي لها بعد رحيله إلى السماء، أما فتحية العسال فقد أكرمته بكتابة سيرتها كما أراد منها.

إن مشوار العمر الذي قطعته الكاتبة من القسوة والحصار في البيت، وحتى الخروج في التظاهرات وهي تهتف بسقوط (شارون) مسافة جد بعيدة وشاقة ومؤلمة حقًا، هي نفسها سنوات عمرها التسع والستون إذ ستحتفل بميلادها في السادس والعشرين من كانون الأول 2002، ورغبة مني في الاحتفال والاحتفاء بهذه الإنسانة العصامية المتميزة وجدتني أكتب عنها وعن (حضن العمر) الذي احتواها، راجيًا أن تصل تحياتي إليها في الوقت المناسب.

قصص ضائعة من ذاكرة ماركيز

في كل مرة أتجول فيها بين المكتبات وأكشاك الشوارع أشعر بلذة أن أعثر على كتاب يساعدني على البقاء حيًا، فما عاد من السعادات ما يكفي حياتنا الملغومة بالإرهاب والقتل والحروب وإعلانات التليفزيون المزعجة.

وأيضًا في كل مرة أرى فيها اسم المترجم "صالح علماني" على غلاف أي كتاب، تراني أشتري ذاك الكتاب دون أي تردد مهما بلغ ثمنه ومهما كان حجم إفلاسي، فقد أقنعني هذا الرجل الموسوعة بجودة اختياراته أولًا، وبقوة ترجماته ودقة نقل المفردات من لغتها الأصل إلى اللغة العربية ثانيًا.

وقد سبق لي أن أكتب عن (ابنة الحظ) و(صورة عتيقة) لإيزابيل الليندي وعن (حفلة التيس) لماريو بارغاس يوسا، وكلها من ترجمة صالح علماني عن اللغة الإسبانية التي يتقنها الرجل حد أنك لا تدري أيهما أجمل: الرواية في شكلها الأول أم الرواية في ملامحها التالية، ثم قرأت له ترجمته لرواية (باولا) وشعرت أن معاناة إيزابيل الليندي بما أصاب ابنتها عام **1991** هو نفسه ما أصاب صالح علماني من أسى وحزن على باولا وهي طريحة الفراش، وهذا التماهي بين الإنسان والمترجم والآخر البعيد عنه هو أعلى ما يصل إليه المترجم في أي مكان وأي زمان.

وقبل أيام قليلة، وفي معرض الكتاب الدولي التاسع في عمان، رأيت (غابرييل غارسيا ماركيز) قرب أحد عشر عمودًا كونكريتيًا على غلاف كتابه الموسوم (قصص ضائعة) وقرأت اسم المترجم صالح علماني، فما كان مني غير شراء الكتاب الذي كتبوا في أعلاه فوق خط أحمر (إبداعات عالمية) وتحت الخط نفسه (نصوص ومقالات) ومضيت بشوق كبير لقراءته، وإذا بي أمام نصوص سبق لي أن قرأتها منذ ما يزيد على عشرة أعوام، لكن الغلاف هذه المرة لا يشبه الغلاف في المرة السابقة، وبرغم ذلك شعرت بمتعة حقيقية وأنا أقطع الصفحات باللذة نفسها التي عشتها ذات يوم وأنا أكرر قراءة غارسيا ماركيز بعد أن ترجمه صالح علماني ودفع به إلى بيتي ومكتبتي وتحت رعايتي.

إنها أول مرة أقول فيها رأيي بالمترجم الفذ صالح علماني مع أنني جئت أصلًا للحديث عن كتاب غارسيا ماركيز "قصص ضائعة" الذي احتوى على عشرين نصًا ومقالةً يقترب بعضها من لغة السيرة الشخصية أو المذكرات، إذ نكتشف أن مواهب (ماركيز) لا تقف كما هو معروف عند الرواية وحدها، بل عمل صحفيًا وكان له عمود ثابت طوال عام وأكثر، كما أنه يكتب السيناريو وقد كتب سيناريو (مائة عام من العزلة) على مدى سنة وستة شهور، كما أن كتاباته في القصة القصيرة ليست أقل أهمية من رواياته الشهيرة، لكنه في كتابنا هذا يحقق قفزة طريفة وجريئة في كتابة المقالات الوجدانية التي يراقب فيها شتى الأفعال الأخلاقية والإبداعية والسياسية والغرائبية التي مر بها شخصيًا، إذ نراه ساخرًا في مقالته "هذه هي القصة كما رووها لي" بل نراه قدريًا يؤمن

بالفانتازيا والقصص الخرافية كما هو الحال في (أشباح الدروب) وناقمًا على تجار الجثث وأصحاب المحارق والمدافن وباعة التوابيت في مقالته المحترمة (أبهة الموت) دون أن يغفل عن ذكر علاقاته بالمبدعين وحكاياته المؤثرة عن كتاب السينما وغير ذلك مما سيأتي ذكره والتعليق عليه في السطور التالية، فهذا المبدع الاستثنائي الكبير مدرسة لتعليم فنون الكتابة والتواضع والشجاعة، وله من الخبرة ما يفسح الطريق لفتح مدارس كثيرة تسمى باسمه تكريمًا وإجلالًا لسمعته وإبداعه وأفكاره المثيرة للنقاش والجدل.

المبدعة الراحلة "ميرسيه رودوريدا" أخبرته ذات لقاء بينهما أنه يتمتع بميل شديد إلى الفكاهة، وقال عنه (فرناردو سابينو) بأنه يميل إلى المغامرة حتى إذا لم يكن ثمة حاجة إليها، والحقيقة هي أن غارسيا كاركيز قد يكون بتلك المواصفات فعلًا، فهو يميل إلى شيء من الفكاهة، لكنها فكاهات أو طرائف مغمسة بالدموع، تجعل من رائعته "الحب في زمن الكوليرا" واحدة من أعظم إنجازات القرن العشرين الروائية، ومن تمرِّس في قراءة غارسيا ماركيز سيدرك بعد دخول عوالمه أنه جاء بما لم يستطعه الأوائل، فهو يجمع ما بين غموض (مارسيل بروست) في البحث عن الزمن المفقود، وشفافية (جراهام جرين) في حفلة القنبلة، وفلسفة جان بول سارتر في وقف التنفيذ وسن الرشد والحزن العميق، إلى جانب كشوفات (أمبرتوايكو) في اسم الوردة، وغيرها.

وهذا التنوع الغرائبي ما بين الغموض والفلسفة والشفافية في مبدع واحد، لم يحدث في عصرنا الراهن إلا في شخصية (غابرييل غارسيا ماركيز) الذي جاءنا بالواقعية السحرية على طبق من ذهب، كما منحنا الحظ مترجمًا حاذقًا مثل صالح علماني، لنكتشف أسرار ماركيز برغم المسافات الشاسعة بين اللغات شرقًا وغربًا.

هذا المبدع يصطاد ويقتنص أبرز وأجمل وأخطر ما قرأ وما رأى في حياته من كتب وأحداث ومشاهد، وهو جد حريص على نوعية الحياة التي عاشها أمثاله من كبار الأدباء في العالم، لكنه كما نرى يحكي بتواضع جم عن نفسه وإنجازاته في كل سطر بعينه، حتى أن القارئ (العربي بخاصة) لا يدري كيف تسنى لأديب بهذا الحجم الكبير أن يكون بريئًا حقًا من المبالغات والغرور والمباهاة، وهي لغة نجدها ملغاة عند بعض الأدباء مع الأسف.

من حياة (يوليوس قيصر) يختار ماركيز قوله "أنا الذي أحكم كل هؤلاء البشر كيف تحكمني الطيور والرعد" ويتذكر كيف أن طاهي أطعمة القيصر قتل نفسه خوفًا وهلعًا عندما احترق الطعام الذي سيقدمه إلى سيده، ومن الروايات التي قرأها مرات عديدة والتي كان لها عظيم التأثير في كتابة روايته "خريف البطريرك"، تبرز في مذكراته رواية "أيام العيد سس" لمؤلفها ثورنتون ويلدر التي يراها أعظم رواية تحكي عن سلطة الدكتاتورية في الكرة الأرضية، في حين يرى في المقابلات الصحفية "حالة حب بين اثنين لا بد أن يعرف الأول الثاني جيدًا ويحبه" ثم يقتص من

بعض المحاورين ويقول إن أسئلتهم متشابهة وثقافتهم أقل من محدودة وكل واحد من هؤلاء لا بد أن يقول لك في نهاية اللقاء "هل ترغب أن تسأل نفسك سؤالًا لم يطرح عليك من قبل؟!".

ولم يغفل في كتابه (قصص ضائعة) الحديث عن جائزة (نوبل) وهي نفسها الآراء التي كررها في حوارات سابقة معه، فلا يزال عند قوله الصارم: "إن ستة من أعظم أدباء العصر ماتوا ولم يحصل أي واحد منهم على هذه الجائزة، وهم (تولستوي) مؤلف ملحمة (الحرب والسلام) و(هنري جيمس) و(مارسيل بروست) و(فرانز كافكا) و(جوزيف كونراد) و(رانير ماريا ريكله)" يقولها مستغربًا ومعاتبًا ومعترضًا على هذا الظلم والإجحاف الذي لحق بأولئك العمالقة، بينما يسخر في الوقت نفسه من حصول (خاثينتو بينابينتي) و(خوسيه أتشيغاري) و(هنريك برونتو بيدان) و(كارل غيلروب) على الجائزة مع أنهم حتى بعد موتهم عجوزا عن تصديق ما جرى لهم من السيد نوبل الذي أحرق الأخضر الجميل وأبقى على اليابس الذي يشبه الرماد!

رأيت في هذا الكتاب وهو صغير الحجم (**108** صفحات) ما لا يوحي بكثرة ما جاء فيه من جماليات وأفكار وشاعرية في الأسلوب، حتى أنني حين انتهيت منه كدت أنسى تمامًا بأنني قرأته ذات يوم من عام **1990** وهذا يعني كم كان مثيرًا ومغريًا وممتعًا، مع أنه لم يكن غير (قصص ضائعة) من ذاكرة الكاتب الكولومبي الكبير غابرييل غارسيا ماركيز!

صهيل الأسئلة

قرأت على الصفحة السابعة أن هذه المجموعة القصصية فازت بالجائزة الأولى لإبداعات المرأة العربية في الأدب عام 2000 في إمارة الشارقة، وكان ذلك يعني أن "رشيدة الشاربي" فازت على عدد ليس بالقليل من قريناتها في الوطن العربي.

ثم أخذتُ الكتاب ورحتُ أقرأ النصوص، أقفز من قصة إلى قصة دون تسلسل أبجدي أو بحسب ترتيبها في الفهرست، ذلك أن القصص القصيرة تشبه العنب، ويمكنك أن تأخذ من عناقيدها ما تشتهي وما ترى، لكنني فوجئت بعد فترة من الزمن أنني قرأت القصص جميعها وأن الكتاب انتهى، وهذا يعني أنني قرأت ثماني قصص و157 صفحة.

كانت البداية مع قصة "الله يحبني يا كريدو" وهو العنوان الذي حملته المجموعة في موسم اشتراكها بتلك المسابقة، لكن القصة ولأسباب خاصة شطبت من الكتاب، مع أنها واحدة من أفضل قصص رشيدة الشاربي، نموذج قصصي مهم عن الإنسان الفقير في زمن النفط، حيث الديكتاتوريات الصغيرة تلعب لعبتها مع البسطاء من البشر "إنهم محض أشياء نستعملها وقت الحاجة" وهذه القصة برغم قصرها قالت أشياء موجعة عن القطط السمان ممن سرقونا ونهبوا خيراتنا وسنبقى بحاجة إليهم

ما دام (العدل) ليس أساس الملك، والفقير يعرف أن العدالة ثمينة جدًا، ولذا فهي تكلفه غالبًا إذا ما سعى إليها مع أولياء نعمته الذين يسرقونه في وضح النهار.

تصف الكاتبة هذا النوع من اللصوص بأنف مفلطح وفك مفترس متين وبطن مكور، وتعجب كيف ينحني هذا الرجل للصلاة وتسأل عن حقيقة حاجة هذا المتخم إلى مناجاة الله صـــ29 أما بطل القصة الذي ابتلعته حفرة في الطريق الصحراوي فقد أنقذه "كريدو" القادم من الفلبين، يجذبه بقوة نحو الخلاص، لكن بطل قصتنا يجذبه نحو الموت، بينما رب العمل لا يسأل ماذا حل بهؤلاء، فهو لا يرى أمامه غير أشياء تتحرك لصالحه!

في قصة (كلمات بلا نافذة) تذكرت الروائي العربي المصري "محمد عبد الحليم عبد الله" في مناجاته العذبة، بين أبطاله في روايته الشهيرة (شجرة اللبلاب)، وبطلة رشيدة الشاربي هنا تكتب الشعر وقد رأت الشخص الذي أحبته أيام الصبا والمراهقة منذ عشرين سنة مضت، ها هي في عيادته يفحص خبايا جسدها، وهي خجولة مرتبكة خائفة كما لو أنها عادت عذراء، لكن الحياة حولها تغيرت، الطبيب الذي أحبته ذات يوم لم يعد كما رسمته في خيالها، فها هو يطارد الصبايا الحسناوات ولا يلتفت نحوها، بل مضى إلى واحدة من النساء وأغلق عيادته في وجه المرضى، ولم يقل أي شيء، إنها غير موجودة أصلًا بالنسبة له، وصحيح ما انتهت إليه القصة، فالعمر دمعتان، واحدة يوم أن فقدته أيام نضوجها وهياجها، ودمعة ثانية يوم أن عثرت عليه صـــ123.

في القصص جميعها تأتي عبارات من نوع (بنفس النبرة) أو (كل الأحلام) أو (بنفس الملامح) وغيرها الكثير، والصحيح هو أن نكتب (بالنبرة نفسها) و(الأحلام كلها) و(الملامح نفسها)، وحرصًا على شاعرية القصص وجمالياتها علينا الانتباه إلى تركيبة الجملة حتى نحقق ما هو أفضل، علمًا أن لغة رشيدة الشاربي تقترب من قراءة القصائد وعزف الموسيقى على امتداد (صهيل أسئلتها).

أول قصة في المجموعة جاء عنوانها (طريق دار العجائب) وهنا ينبغي التذكير بأن القصص كلها جاءت دون أي تاريخ أو حتى إشارة إلى سنة إنجازها، ولا أفهم السبب وراء ذلك، فهي مسألة مهمة يحتاجها البعض عند دراسة (المؤلف) و(أعماله) وسلالم مسيرته ونقاط الضوء فيها.

هذه القصة موجزها عن لص يأتي من الأحياء الغنية، ويسرق الناس في أحياء الفقراء، معادلة عسيرة في التناقض، ولكنها الحقيقة –سياسيًا وأخلاقيًا– فها هم الأثرياء يزدادون ثراءً على حساب الفقراء في كل جزء من الأرض، جرأة في الرصد، مع لغة توازي طبيعة الحدث دون أن تتجاوزه ودون أن يسبقها في الوقت نفسه، رشيدة الشاربي تعلم وتعرف متى تصعد ومتى تهبط من الكلمات، وهي لعبة صعبة المنال في القصة القصيرة، وقد تكون أكثر صعوبة في الرواية، شيئًا ما يشبه النوتة الموسيقية يحتاج إلى تجربة وطول ممارسة والكثير من الصبر.

دار العجائب هو الطريق الذي نسلكه كل يوم، الطريق الذي نحبه حتى إذا سرقونا فيه، وربما نفكر في العيش والبقاء فيه ما دام يضم أهلنا من قبل، وذلك هو البديل الموضوعي المميز في قصص رشيدة الشارني "بين تلك البيوت الواطئة فقط يستعيد الكلام نقاوته" إنها تحب المكان الذي تنتمي إليه حتى إذا كان وكرًا للدبابير أو اللصوص، ذلك الشارع شارعها، والأرض أرضها والتراب ترابها منذ ثلاثين سنة، إنها ابنة حقول القمح والشعير، مزارع الزيتون تزين الدنيا وتضيئها، فهل ستترك هذا كله بسبب لص سرق قلادتها؟!

أما عن قصتها (في متاهة الأقبية العمياء) فهي تقترب من علم النفس، تحكي عن امرأة من طراز قديم بحسب وصفها، تخاف استخدام المصاعد في إحدى المستشفيات حيث تزور قريبة لها، ترى في المصعد عفريتًا فاغرًا فمه لابتلاعها، تبتعد ثم تقترب من هذا الشيء المخيف، لكنها تصعد أخيرًا إلى هيكل هذا العفريت للتخلص من رجل كان يلاحقها، يُغمى عليها داخل هذا الوحش الذي يسمونه (مصعد) ثم تصحو، لترى (قطًا) أكثر وحشية من ذاك العفريت الحديدي، القط يسرق طفلًا في الشهر الخامس على غفلة من الأطباء والبشر الذين ازدحمت بهم المستشفى، إنه يمزقه بأنيابه وبين مخالبه، تركض بهلع من رعب إلى رعب أكبر حيث لا شيء سوى المرارة والخوف ومتاهات الأقبية العمياء.

أما القصة التي حملت عنوان الكتاب (صهيل الأسئلة) فأجمل ما فيها نهايتها، بل هي دون النهاية محض حكاية مكررة عن رجل وزوجته التي

رماها إلى الطلاق في ساعة طيش وغضب بعد أن كرر خياناته لها، هي التي علقته على قلبها مثل نجم قطبي وجعلته بوصلة لحياتها صـــ131 يتنازل عنها فورًا برغم ما يربط بينهما من أطفال وذكريات.

سلسلة من أوجاعه ومثالب كان الرجل هو الذي يتسبب فيها، وذاكرة تمتد إلى سنوات من الضرب والذل والمهانات كان لا بد أن تنتهي بالطلاق، ثم توشك الأمور أن ترجع إلى ينبوعها الأول، إذ بالمرأة تستعد للغفران من أجل أولادها الذين تعلقوا بأبيهم والذي لا يرونه إلا يوم الأحد من كل أسبوع، لكن الزوج –وقد انتظرت أن يعود إليها بعد أن غفرت له إساءاته كلها– يقول في نهاية القصة "لن أستطيع الحضور يوم الأحد القادم لرؤية الأولاد، سيكون ذلك موعد زواجي، فأرجو أن تتدبري الأمر معهم" صـــ146، ناهيك عما رسمته الكاتبة من كوابيس وفواجع تقف في طريق العائلة بسبب التقاليد والعادات التي ترى في المرأة المطلقة حالة من حالات العار، نسمعها على الصفحة (139) تقول: "هجالة شريفة أفضل من متزوجة لعوب".

والهجالة باللهجة التونسية تعني المرأة المطلقة أو الأرملة، وهذه القصة دون سواها يزداد فيها الحوار باللغة العامية التونسية برغبة من الكاتبة في توصيل الحالات الإنسانية اليومية التي لا تحققها اللغة الفصحى أحيانًا.

تلك بعض نماذج رشيدة الشاربي القصصية، كاتبة حاذقة فعلًا، بطولاتها من لحمة الأرض دون فانتازيا أو أقنعة أو رموز، إنها تحكي عن الإنسان

عاريًا إلا من الحقيقة، وكان يمكن الحديث عن بقية قصصها (كابوس الساعة القادمة) و(رحلة محسن الأندلس) و(تلك السنديانة تملك الجواب) إلا أننا أخذنا من كتابها زبدة أفكارها، وهي بحق كاتبة من طراز عزيز على القلب واسم يستحق البقاء في الذاكرة.

ماذا عن القصص الإيطالي

هذا كتاب قرأته في بغداد عام 1982، ثم قرأته ثانية في باريس عام 1985، والمرة الثالثة في عمان بعد مرور عشرين سنة على أول موعد معه فهو يشبه النبيذ، كلما تعتق في السراديب فترة أطول، صار طعمه أحلى وأجمل، فهو يجمع رواد القصة الإيطالية القصيرة، منذ "جيوفاني بوكاتشو" وحتى "فاسكو براتوليني" وهذا يعني من بداية القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين .

وقد تم اختيار 21 كاتبًا من بين مئات المبدعين جاء بهم المترجم "عوض شعبان" في كرنفال قصصي وحفل مهيب لا أظنه سوف يُنسى مهما فات علينا من زمن القراءة، وقد قطع شوطًا ليس بالقصير ما بين عصر النهضة وعهد الرومانسية ثم الواقعية في أبهى نماذجها "ألبرتو ماورافيا" و"كورتسو مالا باريتي" والقاص الساخر "جيوفاني غوار يسكي" الذي تحولت أعماله إلى أفلام سينمائية شهيرة من تمثيل الفنان الكوميدي الكبير "فرنا نديل".

أول بداية للقصة القصيرة في إيطاليا جاءت مع كتاب (الحكماء السبعة) في القرن الثالث عشر، وكان للإغريق أثر على تضاريس الحكاية الشعبية، إلى جانب الثقافة العربية بعد فتح جزيرة صقلية الذي دام قرنين من الزمن، وكان المسرح أول باب مفتوح أمام الحكاية ومن ثم القصة

القصيرة التي برزت مع أول كاتب لها "جيوفاني بوكاتشو" المولود عام 1313 في باريس من أب إيطالي وأم فرنسية والذي على يديه شب حصان النثر وراح يسابق الزمن، لا سيما بعد أن كتب مجموعته القصصية الأكثر شهرة في العالم والمسماة "الديكاميرون" التي احتوت على مائة قصة قصيرة ما زالت تطبع في إيطاليا وعموم أوروبا حتى يومنا هذا.

بوكاتشو، هو الأب الروحي لمئات التلاميذ من عشاق الفن القصصي، حين سألوه لماذا تكتب؟ قال يومها: "أكتب من أجل تسلية النساء والأطفال"، وفي مدينة نابولي أحب (ماريا دي أكينو) حبه العظيم وكانت سببًا في أعماله جميعها، تلك الحكايات العاطفية المأخوذة من أساطير الدنيا، أهداها إلى (ماريا) التي أعطته الشهرة والمجد ومتعة البقاء حيًا معها.

وإذا كان "دانتي" قد استوحى (الكوميديا الإلهية) من رسالة الغفران للشاعر الفيلسوف "أبو العلاء المعري" ومن قصة المعراج، فقد اقتبس "بوكاتشو" قصص الديكاميرون من روح (ألف ليلة وليلة) وقد كان أثرها عميقًا في حياة "كابوانا" و"بيراندللو" و"تريلوسا" وهم أبرز كتاب إيطاليا ما بين عام 1850، 1890 حصرًا، إذ تختلط الدعابة بالتقوى، والصلاة بالمجون –بحسب قول المترجم– ناهيك عن روح الفروسية وجموح المخيلة وهياج الذات أمام المغامرات، داخل بيئة شبه عشائرية

مزحومة بالتباهي والصراعات التي ترى في الموت مجرد شيء سيأتي بعد قليل!

لا أحد ينافس "جيوفاني بوكاتشو" بعد رحيله غير "فرانكو ساكيني" الذي كتب ثلاثمائة قصة ونشرها في كتاب واحد، الذي أضحك القراء على أبطاله وجعل من نفسه بطلًا في عشرات القصص، حتى أن ما يقال عنه اليوم يتجاوز أحيانًا ما قيل في بوكاتشو من مدح وإعجاب لم يحصل عليه مبدع إيطالي من قبل!

لقد دفع بعض المبدعين الكثير من سنوات شبابهم في غياهب السجون والمنافي بسبب أنهم أصحاب أفكار مناهضة للنظام الفاشي أيام "موسوليني" ومنهم "كورتسو مالاباريتي، وبازوليني، وسيلوني ومارينو موريني" وغيرهم، وبسبب المعتقلات التي صارت من نصيب الأدباء في إيطاليا، راح العالم ينظر إلى الإبداع في هذا الجزء من الخارطة نظرة احترام وخشوع.

النقاد في روما، وميلانو، ونابولي، أجمعوا على أن القصة القصيرة ما كان لها أن تنمو وتكبر في عموم إيطاليا لولا "كابوانا ودامبر وفوغاتسارو وفوتشيني وداميتشيس والكاتبة المبدعة آماليا غوليلمينيتي" إلى جانب من ذكرنا منهم في بداية المقال، وهم جزء من غابة شاسعة ما زالت تكبر سنة بعد أخرى.

في أولى قصص الكتاب، سنأتي على حكاية (المخادعة المخدوعة) لمؤلفها (جيوفاني بوكاتشو) وهي لا تختلف أبدًا عن حكايات ألف ليلة وليلة، هنا امرأة تعيش على خداع الشباب والتجار منهم بخاصة، فتأخذ أرباحهم بالحيلة والإغراء والجنس، لكن بطل القصة (سالابيتو) وبعد أن سلبته تلك المخادعة جميع أمواله، تمكن بالحيلة أيضًا من إعادة أمواله، بل أخذ منها ضعف ما سرقته منه، ثم ولى هاربًا بعد أن انقلب السحر على الساحر.

هذه الحكاية التي كتبها المؤلف منذ مئات السنين تعتمد على الطرافة والحكمة وتحذير المغفلين من كيد النساء، لكن القصة كما نرى تؤكد أن كيد الرجال أعظم، أو هذا ما أراده كاتبها (بوكاتشو) في ذلك الزمن البعيد الغابر.

القصة الثانية كتبها (ماتيو باندللو) تحت عنوان (الراهب والغانية) وهي حكاية لاذعة وطريفة ترغمك على أن تضحك، فهذا راهب يأخذ امرأة لعوب إلى صومعته في الكنيسة ويسهر معها على فراش واحد حتى الصباح على غفلة من بقية الرهبان، وبعد المتعة كان عليه الذهاب إلى الصلاة مع (إخوته) وما دام النعاس يغلبه بعد تلك الليلة الحمراء فقد دلق على رأسه ماء الورد حتى يصحو، فتظن المرأة الغانية أن ماء الورد هذا من العطور الغالية النادرة، وفي الظلام الدامس تأخذ قنينة حبر أسود بدلًا من قنينة ماء الورد، تتحول بعد ذلك إلى سواد أقرب من تكون شبهًا بعفريت، فيظن الراهب أن الله سوف يمسخه كما مسخ المرأة

اللعوب، فيهرب مذعورًا، كما هرب من أمامها بقية الرهبان أيضًا، فما كان منها غير أن تركض خلفهم وتذكر كل واحد باسمه، فتكون الفضيحة أن رهبان تلك الكنيسة كلهم على علاقة بها، وهذا ما يؤكد قطعًا مدى رسوخ ألف ليلة وليلة في روح النص الذي كان يكتب آنذاك في ميلانو إحدى أشهر مدن إيطاليا.

والمؤلف (ماتيو باندللو) نفسه كان راهبًا ثم اختاره هنري الثاني ملك فرنسا أسقفًا لمدينة (آجين) وقد بلغت أعماله 214 قصةً قصيرةً يقول بأنها نوع من المذكرات، أما نقاد ذاك العصر فقالوا: "إن تأثيره كان مذهلًا حتى على شكسبير الذي اقتبس منه حكاية روميو جوليت" صفحة 32، وعادة ما يبدأ القصص بعبارة (سأقص عليكم اليوم حادثة طريفة...) ثم يستمر في السرد حتى النهاية.

بعدها نقرأ قصة (كبير الشياطين) لمؤلفها نيكولو ماكيافيللي التي أراد أن يقول فيها إن النساء أكثر رعبًا من الجحيم بحسب رغبته الحارقة، إذ ينزل أحد الشياطين إلى الأرض على هيئة إنسان لامتحان نفسه مع (أونيستا) أكثر النساء جمالًا وفتنة في مدينة (فلورنسا) بعد أن فرض عليه أمير الشياطين عشرة أعوام يقطعها في الأرض مع تلك الزوجة الحسناء، لكنه قبل انقضاء الوقت المفروض عليه، عاد إلى الجحيم خوفًا وهلعًا مما جرى له مع زوجته أونيستا التي أفلسته تمامًا وجعلته فريسة بين مئات الدائنين وهم يطاردونه في كل شعاب فلورنسا –وهي مسقط رأس المؤلف نفسه.

ومعروف طبعًا من هو (ماكيافيللي) الذي عمل أمينًا لمجلس الحرية والسلام، وهو خطيب شهير وداعية من دعاة الوحدة الإيطالية كتب في الدبلوماسية والتاريخ والفلسفة والسياسة والفنون العسكرية، ومن أبرز أعماله كتاب (الأمير) الذي طغت شهرته على بقية كتاباته القصصية ويراه البعض من أخطر الشخصيات (إلى يومنا هذا) على الديمقراطية والعدالة وأنه بكتاباته حقق للطغاة مآرب ورغبات لا تناسب الشعوب التي غلبوها على أمرها، فهو ممن يرى أن الغاية تبرر الوسيلة مهما كان الثمن، لكنه في كتابنا هذا يظهر مبدعًا في القصة القصيرة مع شيء من الطرافة والفكاهة، وقد توفى عام 1527 بعد أن عاش (58) سنة فقط، وما تزال أعماله السياسية تطبع في الكثير من الدول، بما في ذلك العربية، ولا سيما كتاب (الأمير) و(دراسة عن الحرب) أما قصصه فما عاد من أحد يتذكرها حتى في إيطاليا!

أما القاص (لويجي كابوانا) فكتب لنا قصة عنوانها (مضايقات مرغوبة) عن رجل بخيل يؤمن بشيء واحد هو أن الثراء نقمة وليس نعمة، فقد أمضى حياته دون أية متعة سوى الطعام والكحول، وحين أوشك على الموت أوصى بأمواله إلى أخيه الفقير وهو يقول له: "أنا آسف إذ أعطيك هذه المصائب الكبرى" وكان يعني بذلك أمواله التي لم يستفد منها أبدًا.

ومؤلف هذه القصة هو أول من كتب الرواية النفسية السيكولوجية، ويرى النقد المعاصر أنه أسبق من (دوستويفسكي) والدليل على ذلك روايته (ماركيز الصخرة الخضراء) التي كتبها عام 1881 التي نالت

إعجاب القراء شرقًا وغربًا، وهو نفسه مؤلف رواية (التنين) وكذلك رواية (جياشنتا) و(سر الوردة) وهو من أفضل كتاب إيطاليا في القرن التاسع عشر.

لكن قصة (فروسية ريفية) لكاتبها جيوفاني فيرغا أعادتنا إلى دوامة الشرف الرفيع الذي لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم، ولكن على طريقة (صقلية) هذه المرة، والمؤلف يعتمد على شخصيات فقيرة من طبقة الفلاحين، ولم يُصب أي نصيب من الشهرة إلا بعد موته عام 1922 إذ اعتبروه من كبار المبدعين بينما اهموه في حياته بفقر المضامين وضعف الأسلوب إلى جانب مزاجه العصبي الكئيب الذي ما كان يناسب نقاد ذاك الوقت!

أما قصة (غراميات محطمة) لمبدعها (أنطونيو فوغاتسارو) فهي أطول قصص الكتاب (33 صفحة) ومن الصعب اختصارها، لكنها تلعب على أوتار اللغات بين شخوص من بريطانيا وألمانيا وبريطانيا، بحيث يتمكن بطل القصة من إنقاذ إحدى الحسناوات بعد أن كادت تسقط في (فخ) محتال أراد الزواج منها طمعًا في ثروتها، وتم إنقاذها بسبب إتقانه لغة المحتال الذي ما كان يصدق أن (بطل القصة) يمكنه أن ينطق بها أو يفهم مفرداتها العسيرة.

والمؤلف (فوغا تسارو) هجر المحاماة وتفرغ لكتابة الروايات والقصص، وهو ذو مزاج تصوفي مع جنوح إلى الخيال، كتب قصة (القديس)

وحاكمته الكنيسة بسببها، ومن أشهر أعماله رواية (صغير هو العالم القديم) التي تهكم فيها على برجوازية الأقاليم في عز أيام ازدهارها في إيطاليا قبل حرب 1859، ومات في عام 1911 بعد أقل من سنة واحدة على إنجازه آخر رواياته والمسماة (ليلى).

ويشارك (ريناتو فوتشيني) بقصة (النُصب) إذ يحاول أهل القرية إقامة نُصب لشخصية من رجالات الدين أو السياسة، يتبرع الجميع بما لديهم من فائض أموالهم ويشتغلوا بهذا النُصب، وكل واحد منهم يريد رمزًا من الرموز التي يراها أحق من غيرها، لكن الحكاية تجهض مع النحات الذي أخبرهم أن كلفة التمثال تزيد مئات المرات على ما تبرعوا به لا سيما إذا كان (رمزهم) سيمتطي الحصان كما يرغبون، فتنتهي الفكرة إلى عشاء فاخر يشارك فيه المتبرعون وتبقى القرية فارغة من أي (رمز) لها، والمؤلف (فوتشيني) أكثر أدباء جيله تواضعًا وأقل أقرانه بحثًا عن الشهرة، عاش ما يقرب من ثمانين سنة ولم ينلْ حقه في دنيا الإبداع.

قصة (المحارب اللومباردي الصغير) لم تصل إلى مستوى بقية القصص مع أن كاتبها هو (أدموندو داميتشيس) الذي كانت تطبع أعماله يومذاك بخمسمائة طبعة ولا سيما مجموعته القصصية (قلب) التي ترجموها إلى عشرات اللغات في حينه، "وقصة المحارب" عن طفل في العاشرة يتسلق شجرة عالية حتى يرى العدو النمساوي ويخبر بذلك جيش بلاده، فتكون النهاية جاهزة ومعروفة مسبقًا، وهي أن يموت بطلق نارٍ، علمًا بأن مؤلف القصة من ضباط بلدة أونييلا وشارك في الحرب وخرج منها بكتاب

عنوانه (حياة عسكرية) فصار رئيسًا لتحرير مجلة (إيطاليا العسكرية) بسبب أهمية هذا الكتاب ونجاحه في عموم أوروبا.

ونقف قليلًا عند (ألبوتو مورافيا) وقد كتب لنا قصة بعنوان (الرسائل المغلفة) عن رجل يكتب رسائل تهديد بالخطف أو السرقة أو الاغتصاب، فيكتشفه صديقه الوحيد ويعرف أنه يبعث بتلك الرسائل حتى يوحي لنفسه بالقوة، لكن ما جاء في تهديداته يتحقق فعلًا مع أنه لم يكن الشخص الذي ارتكب تلك الجرائم والحماقات حتمًا، و(مورافيا) دون شك من أشهر كتاب إيطاليا طَوال القرن العشرين، لكنه لم يحصل على جائزة نوبل كما ورد سهوًا في مقدمة المترجم، لكن يكفيه أن يقال عنه بأنه مؤلف رواية (السأم) و(الحياة الجميلة) و(امرأة من روما).

ومن أفضل الكاتبات في إيطاليا تطل علينا (ماتيلدي سيراو) التي كتبت قصة عنوانها (بائعة الزهور) عن طفلة ماتت أمها ولم يعدْ من أحد تحتمي به غير أن تتسول في الطرقات لديها الكثير من الجوع والبرد والعطش، وما من أحد يرحمها أو يعطف عليها بسبب أنها قبيحة و(لها رائحة الفقراء وثيابهم الرثة) ثم ترى فتاة حسناء تبيع الزهور في شارع مكتظ بالزينة والسيارات والمارة يشترون منها الفل والياسمين، تعطف عليها بائعة الزهور وتعطيها (فلة) تمكنت بدورها أن تبيعها بعد قليل واشترت بثمنها رغيفًا من الخبز، وما إن عبرت الشارع من فرط سعادتها حتى سحقتها إحدى المركبات الفارهة ولم يبقَ منها غير جسد صغير في فمه قطعة خبز لم تزلْ ساخنة وطرية.

يرى الناقد (بول بورجيه) أن (ماتيلدي) من أعظم مصوري هموم الجماهير بعد (أميل زولا) ثم يقارنها بالمبدع الكبير (بلزاك) وقد تركت جملة أعمال في القصة والرواية والمقالات من بينها: خيالات، والقلب القاصي، وجيوفانا، والمخادع، واشتغلت في الصحافة عشرات السنين وكان لها عمود شهير في جريدة اليوم التي أنشأتها مع زوجها، وماتت عن عمر تجاوز السبعين سنة بعد أن تركت وراءها أربعين مجلدًا من أجمل كتاباتها في الصحافة والأدب.

ثم نصل إلى الكاتب الكبير (غابريال دانو نتسو) الذي كتب قصة (معجن الخبز) وهي عن الجوع وأيام الفقر في إيطاليا، بحيث يطرد الأخ أخاه لئلا يشاركه طعام البيت، وفي هذه القصة لا يكتفي المؤلف بالطرد، بل يقتل الأخ أخاه فوق معجن الخبز، وغابريال دانونتسو شخصية أسطورية، فهو شاعر وصحفي وروائي ومؤرخ وناقد وكاتب مسرحي، لكنه قبل ذلك كله عمل طيارًا، وفي سنة **1919** قام بمغامرة كبرى عندما تمكن من احتلال (فيومو) وضمها نهائيًا إلى إيطاليا بعد أن سلبتها النمسا في أعوام سابقة وقد أطلق عليه الملك فيكتور عمانويل لقلب (أمير الجبل المغطى بالثلج) كما أنه ترك للقراء مائة كتاب من أجمل إبداعاته في القصة والرواية من بينها (البريء) و(ابنة لوريو) و(السفينة) ومات بطلًا في عام **1938**.

ويشارك في هذه الموسوعة الكاتب الشهير (لويجي بيراندللو) بقصة (المرحوم) وهي على جانب كبير من الطرافة والحبكة، إذ تتزوج

(كارولينا) من شاب طيب السريرة هو (بورتولينو) زوجها الثاني بعد (المرحوم) الذي مات منذ ستة أعوام، وفي شهر العسل تصحبه إلى مدينة روما حيث أمضت شهر عسلها الأول مع المرحوم في العاصمة نفسها، بل تسكن في نفس الفندق الذي سكنت فيه مع المرحوم وفي الغرفة (19) التي نامت فيها مع زوجها السابق، وصارت تأكل في المطعم الذي أحبه المرحوم، وما عاد من شيء تحكي عنه ليل نهار سوى ما جرى مع زوجها الراحل، الذي مات مبكرًا، حتى صار المرحوم شبحًا يطارد الزوج الشاب (بورتولينو) في كل شبر يمضي إليه، فما كان منه غير أن ارتكب فعل الخيانة مع امرأة غير زوجته حتى ينتقم أو يتخلص من هذا المرحوم الذي يلاحقه ويسخر منه، فتأتي المفاجأة مع المرأة التي يمارس معها الحب، إذ كانت هي الأخرى تحمل صورة المرحوم حول عنقها في قلادة مغلقة!

والمعروف عن (لويجي بيراندللو) أنه فاز بجائزة نوبل عام **1934** ومن أشهر أعماله المسرحية (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) التي أثارت اهتمامًا عالميًا في كل بقاع الكرة الأرضية وتم عرضها على مئات المسارح وما زالت تعرض حتى اليوم، إلى جانب مسرحياته المثيرة (فكرة ياجيو كومو) و(أنريكو الرابع) و(العضة) وقد حقق (بيراندللو) ثورة في المسرح حين أنقذه من النهايات التقليدية التي كانت سائدة قبل ولادته عام **1867** وهو نفسه صاحب مشروع (رواية لكل سنة) إذ راح يكتب رواية واحدة فقط في كل عام منذ سنة **1922** وحتى رحيله عام **1936** أي بعد حصوله على جائزة نوبل بعامين!

وفي آخر المطاف سنحكي عن (غراتسيا ديليدا) التي كتبت قصة اجتماعية عنوانها (سيدة وخدم) تعتمد على المفارقات فيما نظن أولًا وما سيأتي لاحقًا مخالفًا للظنون، وهذه الكاتبة المتميزة هي أول امرأة في إيطاليا تنال جائزة نوبل عام **1926** أي قبل فوز (لويجي بيراندللو) بها بثماني سنوات، وبدأت شهرتها عند انتقالها من جزيرة سردينيا إلى العاصمة (روما) حيث ظهر لها أول كتاب يحمل اسمها وهي في السابعة عشرة من عمرها وعنوانه (غراميات ممنوعة) واستمرت بالكتابة حتى وفاتها عام **1936** بعد أن ظهرت رواياتها الشهيرة (نفوس صادقة) و(إله الأحياء) و(سر الرجل الوحيد) وغيرها.

يا لها من موسوعة قصص تحيا في كل زمان، وكم هو لذيذ طعم النبيذ المعتق في أقبية الإبداع.. دعونا نحتسيه الآن.

القافلة الأخيرة

الشاعر إبراهيم الزبيدي أكثر الشعراء إهمالًا لإبداعه، مضت سنوات على آخر ديوان شعر له حتى فكر بطبع (القافلة الأخيرة) والتي ستحثه ربما على قوافل أخرى من القصائد إذا تخلى عن كسله سنة واحدة.

أظنني في يومٍ ما رميت عليه عدوى غزارتي في الكتابة، ذلك أنني لا أميل إلى نسيان الكنوز بافتراض أننا سنأتي إليها ذات عام من أعوام الشيخوخة، لذلك تسرب إليه بعض نشاطي وتسللت نحوه حمى أمواجي وقرر أن ينشر القافلة على صحراء شاسعة تمتد إلى 274 صفحة من أجمل ما كتب الزبيدي.

هذا الديوان سيرة شعرية مرت من رحيق ناعس إلى مزرعة تزداد كثافة ووهجًا بعد كل قصيدة، وفوق القصائد يحكي لك أسرار كتابتها، فهو في (حصاد الماء) يقص علينا كيف زار (أحمد حسن البكر) مبنى الإذاعة ليلقي خطابًا بمناسبة انقلاب تموز 1968 وكيف رأى على صدره أوسمة ونياشين لا حصر لها، إذ يقول:

يا حاملًا كل النياشين التي تعرف طعم الدم.

يا حارثًا بالمخلب الجارح ظهر الماء

يا مغرق الشهوة بالأسماء

هذا أنا القادم عبر الغم، في هذه القصيدة.

بينما يحكي في قصيدة (التصدي) كيف بقيت دماء الزعيم عبد الكريم قاسم على جدار ستديو الموسيقى في الإذاعة سنوات عدة حتى أزالوها حين تذكروها إذ يقول:

بقية هنا لدي من دمائه

وبعض شعره على الجدار في الإذاعة

وتحت قبة الدفاع

براعم رمية مبعثرة

ومغزل وصوفة منثرة

وقطة تلم ذكرياتها

بضحكة مكسرة

كل حدث في الذاكرة له قصيدة على الورق، لهذا كتب على غلاف الديوان (سيرة شعرية) لكنه أبعد القصائد عن المباشرة وأعطاها لغة الموج، تصعد وتهبط وتغازل القارئ مهما كان حجم الخراب الذي يحكي

عنه ويمضي إليه، وها هو في قصيدة (سيرة من ليس له سيرة) يحكي عن رحيل الشاعر (حسين مروان) وكيف كان ذات ظهيرة مع النعش الذي ينتظر المشيعين في مبنى اتحاد الأدباء في بغداد، إذ يقول:

من أي بئر جاء هذا الطيف؟

من ذا يسير في الدخان واقفًا يعاند القتامة؟

من يمتطي حصانه؟

تأملي يا نجمة الخيانة

قد طاحت العمامة

وطار من حزامه السيف

وفرت من وراء ظهره الحمامة

وإذا تهيأ لك الدخول إلى قاموس الشاعر، سترى مفرداته تسابق بعضها ما بين (الخوف والحزن والشوق والموت والنخيل والظلام) وقد تتذكر عندها بدر شاكر السياب الذي أطنب في استخدام خوفه وأحزانه وأشواقه واقتراب موته وإحساسه بالظلمة تحت نخيل العراق، ربما لهذا السبب، وأعني به تشابه القاموس لدى كل واحد منهما، ذهب إبراهيم الزبيدي إلى حياة (السياب) ليكتب قصيدة باسمه يقول فيها:

بويب مل ضفتيه

وجف والتوى

منارة الضياء مقفرة

والمقبرة

تفك شدقها عليه

وقصائد هذا الديوان الكبير كتبها الشاعر في محطات كثيرة، حيث طاف بها ما بين بغداد والكويت وبنغازي ودمشق والبصرة والقاهرة، وثمة قصائد ليس هناك إشارة إلى مكانها، وقد سبق له نشر ثلاثة دواوين كان أولها (في سبيل الوطن) عام **1959**، بينما ظهر الثاني عام **1971** عن دار العودة في بيروت بعنوان (قصائد إلى الزمن البعيد)، وجاء الثالث عام **1976** والموسوم (أقمار العيون المهاجرة)، وها هو يطبع ديوانه الرابع بعد ما يزيد على ربع قرن، فماذا نقول عن سنوات الكسل التي عاشها شاعرنا المخضرم؟

واضح من حزمة القصائد التي قرأناها، أن إبراهيم الزبيدي لم يركب موجة الحداثة، بل تميل قصائده إلى الروح الكلاسيكي الذي يعتمد على الموسيقى وجزالة اللحن التي تقترب من الترقيص الهارموني، وخير مثال على ذلك قصيدة (السكر بالكلمات) التي جاء فيها:

آه لو أن الكآبة

عود كبريت لأشعلت دماي

ليتني كنت ربابة

لتسليت إذن بي وتآكلت.. ولكن ما عساي!

وهذا ينطبق على عدد ليس بالقليل من (القافلة الأخيرة) التي احتوت على أعمال سياسية أراد منها الشاعر تثبيت اعتراضه على أخطاء ومثالب وجرائم ما يدور في محيط حياته، وهو شاهد أكيد على قسم لا يستهان به من تلك المثالب التي عشناها منذ ثلاثين سنة أو يزيد.

الكلمات لها وظيفة مرسومة، أرادها الشاعر أن تكون واضحة وليس هناك لبس في معناها، وقد ترك (القناع) جانبًا كما ترك الرمز لمن يحتاج إليه، وراح إلى المعنى فورًا دون وسائط أو زخرفة إلا ما جاءت به الكلمات نفسها.

هناك من يحطم البناء ليأتي بأفضل منه، وثمة من أبقى المكان على أساسه مع شيء من الترميم والأصباغ، وهناك من ترك البيت إلى غير رجعة، ذلك أن الشعر حالة من حالات الجنون، ولكن شاعر ما يشتهي من سلوك.

أما القافلة الأخيرة للشاعر إبراهيم الزبيدي فهي المنزل الذي أحبه هكذا، بكل ما يحتويه من جمال أو شروخ، بكل ما فيه من إبداع أو عيوب، نحن هكذا عندما نحب امرأة ما سوف نغفل عن عيب هنا أو هناك من أجل جوهر الذات الذي يشع من عينيها.

وأعتقد أن الشعر والنساء من طينة واحدة.

الحياة ليست سيئة دائمًا

لو عاشت "إيزابيل الليندي" في أي بلد تحكمه التقاليد القسرية والشرائع الضيقة، لما ظهرت إلى الوجود أبدًا، وذلك أنها تقول ما لا يقال (رقابيًا) وتحكي ما لا يحكى (عربيًا) وتقص علينا مالا يقص (إسلاميًا)، ومن هنا جاء تميزها في الكتابة بعد أن اخترقت المألوف الأنثوي السائد بالمفاهيم المتفق عليها عربيًا.

أتذكر "ليلى بعلبكي" التي اختفت بعد روايتها (أنا أحيا) كما أعود بذاكرتي إلى "غادة السمان" التي تمكنت من اجتياز حاجز الخوف من الرقابة الصارمة التي تفرضها شرطة الأخلاق، وأنظر باحترام إلى تجارب "عالية ممدوح" التي أسهمت في كشف المستور عراقيًا وعربيًا، والأمر نفسه مع المبدعة المصرية "سلوى بكر".

لكن الحال مع "إيزابيل الليندي" أبعد من الاعترافات وأكثر جرأة من دخول المنازل المعتمة وأكثر خصوصية من تسليط الضوء على فراش النوم، وذلك أنها تكتب رواياتها دون أن تفكر لحظة واحدة في الشرطي العالمي الذي يتربص بالممنوعات والذي يطارد المبدعين شرقًا وغربًا لئلا يذهب أي واحد منهم إلى صومعة الأديان، أو يكشف الحجاب عن دهاليز الساسة أو يهمس بكلمة ملغزة عن مخادع الجنس!

وقد قرأت أعمال هذه المبدعة جميعها حتى وصلت اليوم إلى كتابها الرائع "باولا" وهو مزيج من الرواية والمذكرات، تكتب فيه ما جرى في حياتها وهي قرب سرير ابنتها "باولا" التي أصابها مرض خطير مضى بها إلى الموت بعد غيبوبة دامت شهورًا، كانت تعترف بكل شيء مهما تعسر ذكره، كأنها تكتب وصيتها الأخيرة، وقد كتبت تلك الصفحات – وعددها 374 صفحة– خلال ساعات لا حصر لها، قطعتها في ممرات المستشفى في مدريد عاصمة أسبانيا، وأحيانًا في غرفة بأحد الفنادق التي عاشت فيها أكثر من نصف سنة، ثم انتهت من كتابته وهي قرب سرير ابنتها في دارها خريف عام 1992 في مدينة كاليفورنيا بعد عذاب وانتظار، بين شهيق وزفير، بين موت مشكوك فيه وحياة مشكوك فيها انتهت برحيل ابنتها "باولا" أو كما تقول في آخر صفحة من الرواية:

"وداعًا باولا المرأة"

أهلًا يا باولا الروح"

إذ لم يبقَ من الدمع ما يذرف بعد غيابها، لاسيما وأن الحياة نفسها لم تعد تبتسم أبدًا!

في هذه الرواية (المذكرات) يظهر جليًا تأثر إيزابيل الليندي بألف ليلة وليلة، وهي لا تخفي ذلك بل تفخر به وتؤكده دائمًا، والذي يقرأ "بيت الأرواح، وابنة الحظ، وصورة عتيقة، وعن الحب والظلال" يدرك الشوط

الذي قطعته إيزابيل في بحور تلك الرواية العجائبية التي كانت ولا تزال من أجمل ما أعطى العرب من موروث حكائي على مدى مئات السنوات.

لم تلجأ "إيزابيل الليندي" من الفواجع وحدها حتى تقول: "كم هي حزينة على فراق ابنتها باولا"، بل أثمرت فواجعها إبداعات يستحق منا احترام هذه السيدة المبدعة الأم الإنسانة التي اقتربت من العالمية بخطى أسرع من أقرانها في تشيلي وأمريكا اللاتينية "رجالًا ونساءً" حتى أنها اليوم تنافس الكثير من أسماء الكبار أمثال "غونترغراس، جوزيه ساراماغو، شيموس هيني، غاو كيسنجيان، كلود سيمون، وول سوينكا، جوزيف برودسكي، نادين كورديمير وتوني موريسون" وكلهم كما نعلم حاصلون على جائزة نوبل في سنوات ليست بعيدة عنا.

كل كتاب عظيم ينبت على أرض البشر، هو حدث كبير يستحق أن نفرح به ونحتفي بولادته، و"باولا" كما يرى الناشر، وكما أرى شخصيًا حدث استثنائي له خصوصيته، كما أنه أكثر حميمة والتصاقًا بوجدان القارئ من بقية أعمالها، لأنها بطلة الرواية، وما تحكي عنه هو ما جرى لها ولعائلتها وتاريخها وعشاقها أيضًا، وقبل ذلك كله ما جرى لوطنها من انقلابات عسكرية وسفك دماء وموت بالجملة.

عن روايتها الأولى "بيت الأرواح" تقول إيزابيل الليندي: "إن هذا الكتاب أنقذ حياتي، فقد كنت أفحص أعماق نفسي وأرحل معها إلى أشد كهوف الوعي عتمة، مع تأمل بطيء لكل شيء أراه، وكنت

أكتشف في أثناء الكتابة طريقي إلى الحقيقة" وقبل أن تبدأ به كان كل شيء جاهزًا بين يديها، بما في ذلك العنوان والجملة الأولى.

والذي نعرفه عن إيزابيل الليندي هو أنها عملت في التليفزيون، وكانت في أوقات فراغها تقوم بترجمة روايات رومانسية من اللغة الإنجليزية إلى الأسبانية، وكانت تضحك من تلك القصص التي تكون فيها المرأة شابة وجميلة وعذراء وتفكر في فارس أحلامها ويكون الرجل في تلك الروايات مفعمًا بالفحولة والقوة والفروسية، ولا بد في نهاية الحكاية أن يتزوجا، وما كانت إيزابيل في حينها تكتب القصص، لكنها على ما يبدو قررت أن تأخذ كتابتها منحنى آخر يشبه ما جاء في تلك الروايات المحشوة بالشفاه الممتلئة والعيون الناعسة والنهود الناعمة، ومن هنا جاءت روايتها الأولى "بيت الأرواح" قفزة عالية اقتربت بها من الغيوم والسحب البعيدة البراقة، وسرعان ما تحولت إلى شريط سينمائي من أفضل ما رأينا.

ولم تقف إيزابيل الليندي عند ذاك الحد الاستثنائي من النجاح، بل تخطت نفسها وأبناء جيلها لتكتب (عن الحب والظلال) ثم وصلت ذروة إبداعها في ثنائية (ابنة الحظ) و(صورة عتيقة) التي حفرت بهما اسمها عميقًا في دنيا الرواية، لكن مأساتها بموت "باولا" الذي خففت في حينها من جموح عطائها فترة ليست قصيرة، إذا بها تظهر بثياب كتابها الذي أعطته اسم ابنتها نفسه، لتؤكد أن الفواجع يمكنها أن تحلق بصحبة الإبداع مهما كان مستوى الألم.

هي الآن في الستين من العمر –مواليد 1942– متوهجة في إبداعها، راضية تمام الرضا من كل ما جرى في حياتها مهما كان حجم الخسائر التي عاشتها، تقول على الصفحة 131 "أتقدم كل خطوة والسيف في يدي دون لحظة هدنة أو ملل، لقد عشت نجاحات عظيمة وإخفاقات مدوية، عواطف وغراميات، عزلة وعمل وخسارات وخذلان" وكانت تظن أن شبابها سوف يستمر إلى الأبد، وكان العالم يبدو مكانًا رائعًا للعيش، بل هي تعتقد أن الشر محض حدث عابر أو خطأ من أخطاء الطبيعة، حتى حصل الانقلاب العسكري البغيض في تشيلي سنة 1973 في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) لترى نفسها وجهًا لوجه مع فظاظة الوجود وانحسار الخير وفراق الطيبة عن البشر.

وتعترف إيزابيل الليندي بأن جدها صاحب فضل عظيم عليها فقد وفر لها دون علمه بذلك طبعًا الكثير من حوافز الكتابة، وكانت حياته مادة خصبة لجميع رواياتها التي كتبتها سابقًا، والتي ستكتبها بعد موته لاحقًا، فقد كان جدها حكواتيًا بارعًا يتمتع بمرح مخادع ويمكنه أن يروي أشد القصص فظاعة ورعبًا وهو يطلق القهقهات، وقد نقل إليها دون تحفظ كل النوادر والحكايات والدناءات التي عاشها على امتداد سنوات حياته الطويلة، بما في ذلك شذوذ العائلة التي ينتمي إليها، لكنه يرفض الكلام في الدين والمرض أو النقاش بشأن الخالق.

الكتابة كما يقول (أميري كيرتيش) الحائز على جائزة نوبل 2002 هي عملية تأجيل الموت أو قتل الجسد، وهذا ينطبق كثيرًا على ما تقوله

إيزابيل الليندي في الكثير من صفحات كتابها (باولا) الذي وصلت صراحتها وجرأتها فيه أقصى حدودها، فقد قالت كل شيء ولم يبقَ عليها سوى ورق التوت.

عاشت إيزابيل الليندي ثلاث سنوات ما بين دمشق وبيروت؛ وشبع خيالها بسحر الشرق العربي، كما ذهبت إلى تركيا وأمضت الكثير من سنوات عمرها ما بين الهند وأسبانيا واليابان، وذلك يعني أنها عاشت حياتها كمبدعة طولًا وعرضًا، ومن هنا ترى في رواياتها الكثير من مراكب الصيد وأحشاء المناجم وسكان الكهوف وسلاسل الجبال ومواخير المتعة وشواطئ البحار والمحيطات، لقد رأت أجناسًا مختلفة من البشر؛ حمقى وعباقرة، حقراء وقديسين، بسطاء وعشاق مجد، وما جاءت أعمالها الرائعة إلا من معاناتها وسعاداتها، من أسفارها وتجاربها المذهلة، ولا بد من التذكير بشأن المترجم المبدع "صالح علماني" الذي دون ترجمته الغنية الأمينة الدقيقة جدًا لما وصل إلينا كتاب "باولا" بهذه الصورة المحترمة التي لا تقل جمالًا عن لغتها الأولى.

من يشتري أوهامنا الشرقية؟!

يتناسل الوهم من رحم الحقيقة في قصص "لنا عبد الرحمن" وبخاصة في قصة (ثلاث ساعات قبل الرحيل) و(حب شرقي) لكن الولادة موجعة ولا تأتي بشيء، فقد خسر الإنسان عرش إنسانيته ورمى بالبراءة في حاوية الفضلات.

لا أدري ما يعنيه الكاتب الكبير "أدغار آلن بو" بالنسبة لهذه المبدعة، لكنه يتسلل في قصصها كما العشب البري، يغوص في أوردة الحكايات وينمو على أوراقها –أعني أفكارها– دون حاجة إلى حرث أو مطر.

سأعترف بأن ما روته (لنا) أوجعني وأرغمني على السؤال: ترى هل تعلم الدنيا بما يعانيه البشر في هذه الرقعة من الأرض التي يسمونها الوطن العربي؟

ذلك أن ما تكتبه عن الروح يكشف ما يعانيه الجسد من خسائر وحروب يومية وتركات ورثناها من سالف العصر والزمان نطوق بها أعناقنا حتى نوشك أن نموت خنقًا دون شفيع نستجير به.

قصص "لنا عبد الرحمن" هذا شأنها الأول والتالي: أن توقظ الدم ثانية في الجسد المصلوب الذي امتدت إليه المسامير، عساها وربما ترجو هي ذلك لو أنها تتمكن من رفع مسمار واحد عن أصابع قتلانا، لكنها تكتشف

بعد كل قصة قصيرة تكتبها أن الوهم ما يزال أكبر منها وأنها لن تحصد في نهاية المطاف غير البقاء على أطلال قصر كان شامخًا ذات يوم في تاريخ النقاء ونكرات الذات والمروءة.

***

هذه القصص –أو بعضها– أربكتني حين أخبرتني بالمسافة الشاسعة الرهيبة بين ما كنا فيه وما أصبحنا عليه، وليس من قول تستحقه الكاتبة غير أن أكرر: "شكرًا لها فقد ساعدتنا على أن نشعر بمتعة القراءة".

إنها تشتبك مع نفسها في صراع يشبه الحرب، تحاول أو تأخذ كل شيء من البطل المائل فوق الأوراق، لكن الصراع أو الحرب يرفض أن يكون ثمة خاسر بين الطرفين (هي ونفسها في الوقت ذاته) لهذا تستعين بفكرة (ميلان كونديرا) حين يقول: لا يمكن للإنسان أبدًا أن يدرك ماذا عليه أن يفعل لأنه لا يملك إلا حياة واحدة، لا يسعه مقارنتها بحيوات سابقة ولا اصلاحها في حيوات لاحقة، كل شيء نعيشه دفعة واحدة.

والحياة كما تبدو في هذا الكتاب الصغير (73 صفحة) ليست أكثر من (مرايا مكسورة) والحقائق فيها مضحكة جدًا، وكذلك أسماء البشر التي لا تلائم معناها، وهي بالتالي "لعبة دوائر وكل دائرة تفضي إلى دائرة أخرى" ص38 والناس جسور نعبر عليها حتى نحقق رغباتنا أو نحقق عبرهم طموحاتنا مهما كانت الخسائر (خسائرهم طبعًا، دون أن ننتبه إلى أنها خسائرنا في الوقت نفسه)!

الكاتبة تفهم لعبة النفاق التي يمارسها الجميع مع الجميع، لكنها لا تلعب مع القصص لعبة الطبيب النفساني، بل تترك غسيل البشر –أبطالها عمومًا– على حبال نراها عن قرب وقد نخجل مما نرى أو نلعب اللعبة نفسها ونستمر عراة في متاهة المرايا المكسورة التي كشفت عري أجسادنا على شظاياها المتناثرة ثم نقول همسًا مع أنفسنا ونحن نخدعها أو نواسيها أو نضحك عليها:

– يا لهذا الثوب الذي لا يزال أبيض لامعًا!

مع أننا حين نكون وحدنا ندري كيف تحول ذاك الأبيض اللامع الجميل إلى كفن (محض كفن) يمشي على قدمين والغريب أن لا أحد يلتفت إليه ولا يخاف منه!

حتى مدرسة (العلم والفضيلة) صارت طعامًا للسمك المسعور –هل من سمك مسعور في بحر الحيا ؟ نعم، ثمة سمك كبير متفرس، وسمك أكبر وأكثر افتراسًا، لكن الحيتان هي التي تأخذ نصيبها الأوفر من أوهام الفضيلة بحجة العلم والتنوير، وذلك يعني أن العالم لم يعد صالحًا للسكنى، فها هي المرأة المغلوب على أمرها، زوجة الرجل السكير المدمن تضع نفسها وجسدها وربما مبادئها القديمة في خدمة مدير المدرسة، إذ ليس من حل آخر حتى تحافظ على بيتها وبناتها، ذلك أن مدارس الفضيلة والعلم تحمل عناوينها للتمويه، أما الحقيقة التي تكمن وراء سياج المدرسة فهي حالة من حالات (الرقيق الأبيض) الذي يباع ويشترى في وضح النهار

وربما على مرأى من التلاميذ الصغار وهم ينهلون العلم والفضيلة من أفقر الناس علمًا وأقلهم حرصًا على الفضيلة، إنه مسلسل طريف آخر من أوهامنا الشرقية، لكنه المسلسل الوحيد الذي ينتهي مهما طال زمان البث الأرضي!

***

هل الزواج خدعة لتستمر البشرية؟ كل شيء معقول ما دمنا نفكر فيه بلا رقابة ودون خوف، ثمة أعراف وقوانين حكمونا بها دون حق، ثم يأتي من يؤكد ضرورة التمسك بها دون اعتراض وبلا شكوك، وأرى أن مهمة الكاتب المبدع هو أن (يفتت) الحجر وأختام القوانين القديمة ونقوش المسلات البالية ليكتب قانونه الذي يؤمن به، وفي قصة (حب شرقي) يتم التأكيد على أن الزواج علاقة شبه مؤسساتية خادعة من أجل قيام أسرة وتربية أطفال وفرض قيود حتى لا يتحرك البشر خطوة أبعد مما هو مسموح به، ولكن على الجانب الثاني من شاطئ الرقابة تقول بطلة القصة:

"داهمني إحساس بالفرار من عصر الحضارة والتكنولوجيا، ومن عصر الحروب والمجاعات، تمنيت لو أبقى في هذا الركن وأن ينساني التاريخ". صفحة 55.

يبدو أن البراءات تمضي عن الأرض، تغادرها إلى غير رجعة، لكن البراءات برغم ذلك لم تزلْ في زاوية مجهولة من النفوس، هذا ما تكشفه

قصة (تقمص) حيث تموت الطفلة رسميًا في البيت، لكنها هي نفسها ترى كل شيء "أمي بدأت تنتحب، وجه أبي يبدو شاحبًا وهو يمد يدي إليه يقيس نبضي، يضع رأسه على صدري يصغي إلى دقات قلبي، غريب! أنا لا أسمع دقات قلبي" ص50.

قصص (لنا عبد الرحمن) تغوص في عالم المرأة، تكشف المستور من العادات والتقاليد والطقوس الحياتية اليومية، كشف دائب وعميق لا حدود تمنعه من الصراحة والجرأة واقتحام اللا مألوف إلى أقصى ما تفعله المرأة حين ترى في الكتابة مهنتها الأولى، وهي اسم يضاف بقوة إلى كاتباتنا العربيات المبدعات، مؤكدين على الضوء الذي ينبثق من هذه القصص العشر التي تأتي بالأوهام الشرقية عنوانًا ذكيًا لجمهورية من الرحيل والهروب والتقمص والاغتصاب والخوف والخسائر والتنازلات، ولعل أكثر ما يوجع في زمانها ومكانها أنها خسائر بالجملة وليست بالمفرد، أعني خسائرنا في الزمان الذي نحن فيه، وأيضًا على المكان الذي ولدنا فوق تربته.

كم هو موجع أن تشعر على حين غفلة أنك في الزمان الخطأ، وأن المكان الذي أنت فيه لم يعد يتسع لشخص مثلك، وإذا ما ظننت العكس، فما عليك سوى الجلوس تحت خيمة أوهامك الشرقية حتى مغيب الشمس!

الكتابة في تموز لا ثياب عليها!

يبدو أن الصحافة أخذت منه الكثير، ولولا ذلك ربما قرأنا له أعمالًا أطول وأغنى، فهو كاتب قصة قصيرة ماهر، رأيته مثل صياد متمرس يعرف متى وأين وكيف يراقب فريسته لئلا تختفي عن ناظريه قبل اصطيادها.

القاص (خليل قنديل) كانت بداياته مع (وشم الحذاء الثقيل) عام **1980** وله مجموعة قصص مهمة عنوانها (حالات النهار) أصدرها عام **1995**، ثم جاءنا اليوم بقصصه الأخيرة (عين تموز) بعد رحلة ليست قصيرة في ربوع هذا الفن الجميل العسير.

بهدوء، وبدون ضجة، يتسلل خليل قنديل إلى مضمون قصصه، حالة تشبه الهمس بينه وبين قارئه، كما لو كان يحكي سرًا أو خبرًا يهمك أن تسمعه، فهو يبدأ قصة (الصغير) بتنويعات متفرقة واختلافات مبسطة بين "الصغير الذي أيقظته أمه ذات صباح" و"الصغير المنتعش برائحة الصابون" و"الصغير الذي انتابه إحساس مباغت بفقدان الحماية" حتى تكتشف بعد ذاك الهدوء جمرة نار في نهاية القصة حين راح الشيخ مبروك يبصق في فم الصغير حتى يمنحه البركة والصحة والعافية، بينما الطفل الذي أربكته نظرات الشيخ صار يرى الدنيا تغرق (معه) في بصقة قذرة ذات طعم مالح وهرم صـــ**16**.

إنها القصة القديمة التي تكررت في طفولتنا في دمشق كما في عمان أو بغداد أو القاهرة، والتي بسببها صرنا نكره بركات أولئك الشيوخ التي لوثت براءتنا حتى أننا فقدنا الثقة بعقول ذوينا وصارت الوساخة حالة من حالات الذاكرة من الصعب تنظيفها مهما استعملنا من صابون أو عطور، إنها قصتنا التي لا تنسى!

في قصة (مرض) وعلى قِصرها، قالت الكثير، العالم مريض من أقصاه إلى أقصاه، كل شيء يمتد أو يتشعب أو يطول أصابه المرض، شجرة الخوخ، والأسواق، والأزقة، والحي برمته، وكذلك الشوارع، وباص الركاب، بل الشمس نفسها مريضة، ولا بد أن كارثة ما ستأتي في أقرب فرصة، إنها القصة الوحيدة التي أخذت مسارها خارج سرب القصص التسع التي اعتمدت نهجًا غير هذا "سمعت الزقاق يئن مرضًا حينما سرت المياه الوسخة على حواف جانبيه كأنه يتستر عنوة على فضيحة اقترفتها البيوت" صفحة 34.

القاص خليل قنديل في قصة (ثوب أمي) يعتمد الحكاية بمعناها الفطري التي طالما سمعناها من الجدة أيام زمان، لكن يملك من بهارات الصنعة ما يضيف على الحكاية لمسة سحر خفيفة طازجة، وهذه القصة بدورها تمكنت من ازدواجية الرجل الشرقي المأخوذ بكل ما ليس له، الذي يحاول فرض سيطرته بأيما وسيلة كانت، حتى إذا كان الثوب هو سوطه الذي يصفع به زوجته ويفرض عليها ارتداء ما يشاء هو برغم الثوب الذي يثير الشهوات، فهي محض طريقة للقول "أنا سيد البيت" مع أن

بطولة القصة كانت أصلًا من نصيب الطفل الذي يرى (ثوب أمه) وقد صار وبالًا عليها، وهو يرى أمه تبكي "ليس كالبكاء على أهلها الذين فقدتهم الواحد تلو الآخر، أو البكاء الذي كانت تبكيه أمام المتسولات اللواتي يطرقن باب دارنا، ولا مثل البكاء الذي تطلقه في الأدعية والرجاءات على فراش الصلاة، ولا يشبه البكاء الذي يجيء حينما تتذكر بحسرة أيامنا الفائتة، كان بكاؤها هذه المرة يخصها تمامًا" صفحة 79.

ويعود خليل قنديل في قصة (امرأة النافذة) إلى الشكل الذي اعتمده في قصة الصغير، إذ يبدأ بالمفردة نفسها ثم يبني عليها اضاءاته على النحو المرسوم هكذا:

– المرأة التي أطلت من النافذة: ثم

– المرأة التي مزقت وحدتها الليلة بالوقوف في منتصف النافذة.

وهكذا حتى الوهم الأخير الذي يرى فيه نفسه (أعني بطل القصة) وقد أصبح هو الصياد لتلك الفريسة التي ما زالت تراقب الدنيا من وراء النافذة صفحة 47.

إنها طريقة في الكتابة تأخذ المشهد على شكل أنغام صوتية، ثم يقطعها العازف (المؤلف) إلى أجزاء ترتبط في النهاية مع بعضها حتى تكتمل القصة (المعزوفة).

أما في قصة (عين تموز) التي حملت عنوان الكتاب، فهناك بنت صغيرة تجلس أمام أمها عكس اتجاه الباص، والركاب أمامها مثل نبات طالع من الكراسي، وثمة امرأة عجوز أخذت جل اهتمامها ورقابتها، والصيف حارق في شهر توز، عيون الركاب تلتصق بالبنت الخارجة توًا من عتمة بيتها الرطب، حتى أن البنت المذعورة راحت تقرص جسدها عساها تخلع تلك العيون من مسامات جلدها، ثم فجأة راحت تصرخ وليس من سبب مؤكد وراء صراخها، لكنها على ما يبدو مجموعة أسباب غير مرئية، الفقر، وحرارة تموز، والروائح النتنة، وربما ضيق المكان، والإحساس بالضآلة مع شمس لاهبة لا ترحم، وربما (دنيا) على هيئة باص للركاب تخترقه عين تموز وهي وحدها من يجلس عكس اتجاه الدنيا، وربما "عين أصابت البنت" كما تعتقد أمها التي ترى أن هناك من يرفض الصلاة على النبي في الباص الذي يمشي على نيران تموز.

والمؤلف يراقب الأشياء بحكمة الراوي الصبور، لا بد أنه كان بين الركاب في باص الفقراء، يتذكر ما قاله (كافا في) في قصيدة الجدران التي اختارها دون غيرها مقدمة لكتابة:

"دون شفقة، دون خجل، ودون أي اعتبار

بنوا حولي جدرانًا عظيمة وعالية

والآن، ها أنذا أجلس يائسًا

لا أفكر بشيء.."

أما قصة (العانس) فقد تكررت عربيًا وبأشكال مختلفة، لكنها عند خليل قنديل كانت أقصر طولًا وأعمق أثرًا، فالعانس التي تنتظر ابن الحلال بكثير من الولع واللهفة، وحين يطرق باب بيتها توشك أو تنتهي من عنوستها، وإذا ما طلب يدها فهي لا تمانع من الزواج "أجفل قلبها وتسارعت دقاته، ولاحظت ارتجاف جبينها وهو يلاصق قماش الستارة، شردت بأصابع مرتجفة وهي تتحسس وجهها، وبدت مثل قطة مذعورة وهي تهرب إلى غرفة نومها، رمت بجسدها فوق السرير، كانت خائفة من أن تفتح له الباب، ترتعش من فكرة أنه جاء ليتزوجها" صفحة 21. لكن الرجل الذي يطرق الباب ما جاء للزواج، بل راح يخبرها أن الماء قد طفح من الخزان وأغرق بيتها وبيته وأن عليها أن تغلق الصنبور، وهو المعادل الموضوعي لطفح اليأس والخسائر وضرورة أن تغلق الباب نهائيًا على عنوستها التي تساقطت كما الماء وما عاد من السهل جمع الماء الذي تسرب من خزان العمر!

قصة (يوم غير مألوف) تحتاج إلى دراسة، وسوف أظلمها بكتابة موجز خاطف عنها، وأرى أنها واحدة من أجمل قصص المجموعة إن لم تكن أعلاها شأنًا، فهي تحكي عن النقائض والجنون والازدواجية في الشخصية العربية التي تحاول فك قيودها من ماضيها لتصل إلى التحضر والتطور، لكن تقاليدها وعاداتها وطقوسها القديمة هي التي تبزغ بين حين وآخر لتؤكد نوع الإرث الذي غلب التطبع وأثبت الطباع، وبهذه القصة رأيت

(خليل قنديل) يمشي بهدوء، ودون ضجة ليكرس اسمه باستحقاق مع القصة القصيرة.

ويا له من اختيار صعب!

ليلة القبض على الأخطاء

فوجئت بعنوان الكتاب قبل أن أمد يدي لقراءته، ذلك أن (ليلة القبض على فاطمة) ما تزال عالقة في ذاكرتي، وأعني بها الرواية التي كتبتها (سكينة فؤاد) والتي تحولت إلى شريط سينمائي من أفضل أعمال السينما المصرية.

أما (ليلة القبض على رئيس الجمهورية) فقد خسر فيها المؤلف رواية كان يمكنها أن تبقى في ذاكرة الوجع العراقي إلى زمن بعيد، لكن زهير كاظم عبود مزق الرواية إلى مجموعة قصص وحكايات قصيرة تصب جميعها في قالب المحنة التي عشناها منذ أكثر من ثلاثة عقود، ورأيت أن هذه الحكايا لا تعني غير الإنسان العراقي وحده بسب أن ما جاء فيها لا يصدقه أحد خارج حدودنا الرسمية الشائكة، وإذا ما ذكرناها في أروبا أو أميركا أو اليابان، فسوف تسمع فورًا من يتهمك بالكذب والتلفيق وتأليف الأوهام.

إنها مشاهد خاصة وسط الكم الهائل من صور الخراب التي يحياها العراقي في زمن المحنة والحروب والحصار (كما يقول الناشر) مشاهد مأخوذة من أعماق الروح وسط عالم مزدحم بالغرائب والهجرات والحنين وفقدان الحلم، رصدها زهير كاظم عبود ونقلها واضحة وبسيطة كما هي الحقائق، إنه يدعونا لزيارة المحنة في كتاب صغير لا يتجاوز نسبة قطرة ماء

واحدة من محيط الجرائم التي نعرفها بالملموس، ومن المؤكد أن المؤلف عاش قسطًا من العوم في ذاك المحيط الشاسع الرهيب.

قصة (دماء يابسة فوق لحية عباس) تأتي على شكل وثائق يمكن أن تقدم إلى منظمة العفو الدولي أو لجان حقوق الإنسان، فهي حقائق يعرفها أبناء الرافدين وإن بدت غير معقولة لغيرنا، فهنا رجل يهان إلى أقصى حدود الإهانة، وليس من تهمة عليه سوى أنه قال في الدعاء "ربنا لا تسلط علينا من لا يرحمنا" إذا به بين أنياب رجال الأمن حتى تسيل الدماء على لحيته ويبطشون به دون أي ذنب.

إنها الحياة داخل حقل التسالي "صدق أو لا تصدق" والذي يتسلى بإهانة الشعب واعتقاله وتعذيبه ما زال يلعب فوق لحية عباس، والمؤلف يعمل على مضامين القصص بنسبة أعلى بكثير من اهتمامه بأسلوبها، فهو يريد أن يوصل رسالة ما قبل أن تعطب الذاكرة أو تتشظى.

زهير كاظم عبود يأخذ أفكار القصص من واقع الحال الذي عاشه كل عراقي داخل ذاك السجن الكبير، وفي قصة (نبوءة الدكتور شناوة) حول مصير الجبهة الوطنية (على أنها مكيدة ومصيدة وينبغي علينا المزيد من الحيطة والحذر) جاءت صحيحة، يوم وقعت الواقعة تبخر كل شيء مثل فقاعة صابون وجرى ما جرى بعدها من قتل وتهجير وخسائر ما زالت آثارها حتى يومنا هذا.

أما قصة (إنه مواطن عراقي) فهي أفضل قصص الكتاب، بالتالي هي مشروع رواية تحكي عن اللوعة والخراب والمرارة التي عاشها المواطن العراقي من عام **1959** وإلى عام **1982** بحسب الفترة الزمنية التي اختارها المؤلف، وقد اختصرها إلى سبع صفحات، لكنها ستبقى إرثًا وخارطةً ورسمًا هندسيًا لمن يتمكن من إعادة كتابتها روائيًا فهي تحتاج إلى مشغل حتى يتم تركيبها من جديد ويحكي فواجع البلد المغصوب عليه في أزمنة السيئات والانقلابات العسكرية التي خسرنا فيها آلاف الرجال من خيرة ما أنجب العراق من أطباء وأدباء ومهندسين وخبراء وأساتذة.

ثم يمشي المؤلف إلى (وزارة الملابس الداخلية) وهي حكاية طريفة ولاذعة من قصص (الضد) ترتدي لباس التهكم من وزراء وبيادق لا سلطة لهم، يتحركون كما الأراجوزات وما من خصوصية أو كرامة أو استثناء عن بقية المقموعين من أبناء الشعب، حتى أن رجل الحماية يفتش أجسادهم وثغورهم وثيابهم قبل ذهابهم إل القصر الرئاسي، والخوف يمشي معهم بل يسبقهم إلى مكان الاجتماع مع السيد الرئيس، إذا بهم يصغون إلى قرار من القائد نفسه بإقامة تمثال شامخ كبير (لسيادته) تبرع به أهالي محافظة القادسية، مع أن وزير الداخلية وقبل خروجه من وراء مكتبه كان يقرأ تقريرًا مفصلًا عن نسبة التسول والبطالة والمجاعة في تلك المدينة، وبرغم أنه يعرف جيدًا حجم اللعبة إلا أنه مثل بقية الوزراء راح يبتسم ويهز رأسه بالموافقة طبعًا.

ويبدو من تسلسل أحداث القصة وما فيها من معلومات صحيحة عن التفتيش وأصابع الحماية التي تدخل أينما تشاء، سبق للمؤلف اللقاء مع السيد الرئيس، فهو يعرف كل طقوس اللقاءات الرئاسية وغرائبها بما في ذلك (ما لا يقال) مع أنه قاله وكتبه بجرأة ومسؤولية.

أما القصة التي حملت عنوان المجموعة (ليلة القبض على رئيس الجمهورية) فهي منذ بدايتها تخبرك بأن كل ما سيأتي فيها أضغاث أحلام، إذ نجد مسؤول دائرة التجنيد وقد قرر القبض على رئيس الجمهورية بسبب تخلفه عن خدمة العلم، وبرغم توسل رئيس الديوان ورجاءات الرئيس نفسه، إلا أن مسؤول دائرة التجنيد مصمم وبقوة على جرجرة رئيس الجمهورية لإكمال خدمته العسكرية ولم ينفع معه أي كلام وأي إغراء حتى يصحو من نومه على صوت زوجته بعد أن تأخر قليلًا على الدوام، وفي الطريق إلى مركز مديرية التجنيد يسمع في الراديو خطاب رئيس الجمهورية وهو يوصي أبناء الشعب بتطبيق القانون وشمول العراقيين جميعًا بتنفيذ الواجب ودون أي استثناء!

ومع النقائض التي توحي بها الحكاية، وأيضًا مع روح المباشرة والطرافة، إلا أن القصة تنطق بأسلوبها المضحك الذي يدعو إلى السخرية من قانون (آخر زمن) والتي يوشك مضمونها أن ينفجر أمامك مثل قنبلة مفتوح مسمارها منذ وقت ليس بالقصير.

لكن قصة (رائحة عبقة في سقف السيل) تبدو من أول سطورها حكاية حقيقية حدثت فعلًا، عن امرأة عجوز اسمها (أم عليوي) تفترش رصيفًا في منطقة (سقف السيل) داخل العاصمة عمان وهي تبيع حاجيات من النوع الرخيص (أصباغ أحذية ومسابح سوداء وأمواس حلاقة وقداحات ومكائن حلاقة وجوارب وأمشاط) بينما بطل القصة هو نفسه (زهير كاظم عبود) الذي يتساءل عن مستقبل العراق ومتى سيعود المهاجر نحو البلاد التي أحبها؟

أُم عليوي قتلوا أولادها الثلاثة في الحرب والمعتقلات وقررت الجلوس على الرصيف تحت الشمس حتى يستعيد الناس الشرفاء ما سلبته السلطة منهم، وحين أراد المؤلف رؤيتها مرة ثانية أخبروه بموتها، أما القبر الذي كان من نصيب جسدها فهو في مقبرة (سحاب) حيث يدفن هناك من لا أحد يسأل عنه، وتلك هي مصائر الناس في بلد يراه العالم من أغنى دول آسيا وثالث أغنى بلدان الدنيا!

وتبقى لدينا قصة (سيرة شخصية لمفوض الأمن محمد حسان) حيث نشاهد فيها رجل أمن وكاتب تقارير مخنثًا ومريضًا لا شيء يفرحه مثل إيذاء الناس في محلته، يعمل ليل نهار في خدمة السلطة، لكنه يوم أن غادر الحياة لم يخرج أحد في جنازته بما في ذلك أقرانه من رجال الأمن الذين كان يعمل معهم!

كما أبقيت قصة (مهدي والسياسة) حتى آخر الشوط والتي بدورها يمكن أن تكون رواية (مهمة) عن أحوال العراق في نهاية القرن العشرين، فهي تحكي عن (مدير أمن) شاذ جنسيًا وبشكل سلبي، يطلب من المواطن مهدي اللوط به، ثم التكتم على ما جرى وإلا تطور الأمر إلى عقوبات صارمة، ومع أن مهدي لا علاقة له بالسياسة فقد خرج من غرفة مدير الأمن وقد انقلبت الدنيا أمام عينيه وصار يحكي بصوت مختلف عما كان عليه، وربما قرر الانتحار أو أن يكون سياسيًا محنكًا ما دام (الإنسان الذي كان يخافه ويهاب مكانته لم يكن غير مريض يحكم الزقاق والمحلة والمدنية بشذوذه الجنسي) وهي معادلة مخيفة بين ما ترى وما لا تراه!

وبقية قصص الكتاب لا تبتعد خطوة واحدة خارج هذا المدار، ومن المهم أن نشير إلى (ثقافة الفقراء) التي تحكي قصة (شيوعي) لا يعرف القراءة ولا الكتابة لكنه يعرف أكثر من سواه عن كومونة باريس وثورة أكتوبر وتاريخ الحركات السياسية، ناهيك عن قصة (التليفزيون) و(الذي قال كلا) و(الأضابير) فهي تؤكد الوجع العظيم برغم أنها تقترب من الحكاية وتبتعد عن القصة القصيرة بمفهومها (السارتري) المذهل.

زهير كاظم عبود رجل يعرف حجم إبداعه، ويكفيه شرفًا أنه قال (كلا) في زمن الببغاوات التي قالت (نعم) على غفلة من الضمير.

حكايا وقصائد موسى حوامدة

ما بين الشعر وكتابة الحكايات، يتأرجح موسى حوامدة بين عالمين، حين يغازله الشعر تأتي إليه الحكاية ملفعة بعباءة الغوى، تلفه تحت طياتها إلى غابات القصة القصيرة، وحين تتمكن منه الحكاية يظهر فارس الشعر على صهوة البراق، حتى يوشك موسى حوامدة أن ينسى هو نفسه ما إذا كان شاعرًا يكتب الحكايات أم حكواتيًا يحب الشعر؟

يقول في واحدة من قصائده، إن المعركة التي استشهد فيها ابن خالته كانت متكافئة جدًا، إذ ترى جيش الدفاع بكامل عدته وابن خالته وحده في الجهة المقابلة!

وقد لا يرى البعض في كلام كهذا ما يراه في الشعر، وقد يختلف الحال مع قارئ آخر، ذلك أن الإحساس أشبه ما يكون بلعبة الروليت، تشعر أنك سوف تربح الليلة إذا ما لعب على الرقم عشرين مثلًا، وإذا بك تربح فعلًا، وربما ينتابك إحساس أن هذه الليلة ليست ليلة حظك، فإذا غادرت الصالة أنقذت نفسك وإذا أصررت على البقاء واللعب سوف تخسر، لكن الأمر قد يأتي مختلفًا، إذا بك تربح!

وفي الشعر لا بد من المقامرة مع النفس، فهناك العشرات بل المئات، بل الآلاف من البشر تتعاطى كتابة الشعر، وما عليك غير أن تعثر على

طريقة مختلفة حتى يشعر بك (الآخر) وحين كتب موسى حوامدة ذاك المقطع الذي يقول فيه:

يا إلهي،
كلما حدقت في المرآة،
أرى وجهي

شعرت يومها أنني قريب من هذا المغامر حتى إن أخطأ في عشرات القصائد، ذلك أن المغامرة هي نوع من المقامرة، والمقامرة هي نوع من التجاوز على المألوف، والتجاوز على المألف نوع خطير من الفروسية، والفروسية كما تعلمون هي نوع من الوقاحة مع الحياة قد تأخذك إلى النجاة فتصبح مشهورًا محترمًا تمشي في الأرض مرحًا حتى إذا لم تصل الجبال طولًا، أو تجرجرك إلى الموت بطعنة سيف واحدة فتخسر الأول والتالي.

أنا شخصيًا أحب الشاعر الذي يتمتع بالوقاحة مع النص، وأن ينظر إلى النص على أنه منافس له وليس أخًا أو صديقًا، فإما أن ينتصر النص عليه ولن يعود شاعرًا، أو ينتصر (هو) على النص فيحقق وجوده أمام نفسه أولًا وأمام العالم بعد ذلك.

القصائد أمرها جد بسيط، برغم أنها شيء خطير ومخيف في الوقت نفسه، وبين البساطة والخطورة خيط رفيع قد لا يراه البعض منا، وسأعطي مثلًا على زواج الخطورة بالبساطة، قول موسى حوامدة في هذا المقطع:

النوافذ، اخترعها أحد الخلفاء
ليتجسس على جواريه
لكن الفقراء
ظنوا أنها من ضرورات البناء!

والمسألة هنا تتخطى النوافذ، كما تتخطى الجواري، وكذلك الفقراء، بل وحتى ضرورات البناء والتجسس، لكنها لا تتخطى الخليفة بأي حال!

تلك هي بعض مشاكسات الشاعر، الذي يقول:

في 25 شباط جئت إلى الدنيا

فوجدت ذنوبي قبلي

لكن الحديث عن حكايات موسى حوامدة تحتاج إلى شيء من الرجوع إلى شخصيته، فهو كاتب قصة لا يدري حتى اليوم بأنه كاتب قصة، كما أنه لا يتعامل مع تلك النصوص بأهمية توازي اهتمامه بالشعر، فقد قالوا بأنه (شاعر) وأخذته العزة بالإثم، مع أنه أصدر (خباص الضايع) و(زوجتي ضربتني) و(حكايات السموع) وكلها تقع تحت تصنيف الحكاية الساخرة الموجعة التي انتشرت كثيرًا أيام عبد الله الطوخي ومحمود تيمور وطه حسين، وأظنه سيكتب لاحقًا الكثير من القصص التي قد تأخذه إلى الرواية ذات يوم.

يقول في مقدمة كتابه (حكايات السموع) إن الأمر وما فيه هو أنني أكتب بعض الحكايات الساخرة في إحدى الصحف اليومية، ثم أغرف من الذاكرة وأيام الطفولة، وهو كلام ينطوي على شيء من التواضع، ذلك أن الكتابة في الصحف مسؤولية ليست أقل أهمية من ظهور اسمك على كتاب مستقل.

ها هو يتمنى لو عاد راعيًا في جبال السموع، بل يتمنى لو أنه لم ينجح في الصف الأول لئلا يمضي إلى الحال الذي هو عليه اليوم، ولن يشعر بالخسارة إذا ما عاد يسرح ويمرح مع الأغنام في مغارة (غزة)، إنها صرخة اعتراض على موسى حوامدة جاءت من موسى حوامدة نفسه، الذي صار محض شخص (حضاري) يجلس منتشيًا في فنادق الدرجة الممتازة ويسكن في الجاردنز ويأكل البيتزا ودجاج كنتاكي ويستخدم الفاكس والإنترنت، صرخة اعتراض على شكل حياته الذي ما عاد يروق له، حتى أنه يتمنى الرجوع إلى قريته دون ندم على أي شيء، ولا مانع أن يكون (حتى) شجرة أو حجرًا أو ذرة تراب في نسغ زيتونة، كما أنه لا يمنع نفسه من الاعتراف بأن حياته لم تعد كما يتمنى، ولهذا تراه يصرخ على الصفحة (**16**) ويقول: طز في هكذا حياة!

في حكاية (طار بيتكم) يغدو المكان الذي يعيش فيه الكاتب مرتعًا للسياح بعد جرائم إسرائيل، والبلدة كما يروي عنها تصبح سوقًا لبيع النحاس المتبقي من قذائف العدو، لقد طار البيت الفلسطيني في الهواء ولم

يبقَ منه غير رقعة جاهزة لكاميرات السياح وهم يضحكون على مأساة العرب!

أما (البلدة القصيدة) فجاءت تحية امتنان للشاعر الكويتي المعروف أحمد السقاف الذي كتب قصيدة بعنوان (ولا تبكي السموع) يراها المؤلف أفضل من تصريحات الساسة وأعمق أثرًا من الشجب والتنديد الذي يتكرر دون فائدة ضد إسرائيل وقد أعاد موسى حوامدة نشر القصيدة احترامًا لمبدعها، ولعل أبرز ما جاء فيها قول الشاعر:

بني قومي وملء القلب نار يؤججها التخاذل والقنوع، برئت من العروبة أن بقيتم على حال جحافلها الدموع. وتتكرر المأساة في حكاية (الاحتلال الثالث) إذ يتم احتلال قرية السموع للمرة الثالثة (مسقط رأس المؤلف) ويبدو أن احتلالها الرابع حدث بعد نشر هذا الكتاب وهو ما تنبأ به حرفيًا في آخر سطر من مقالته، بل سيأتي بطرق شرعية التفافية ومستوطنات في حين أن العالم سوف يتفرج علينا من على شاشات التلفزة والإنترنت ويكتفي بالشجب وذرف الأسى وتكرار القول: إنا لله وإنا إليه راجعون!

وعندما نصل (بيت المجانين) سنعثر على عائلة فقيرة يهددها المطر الغزير، وبرغم الخير الذي يجيء عادة مع زخات الماء السماوي، إلا أن الجنون يأخذ رب العائلة إلى طرد أولاده في جو من الغضب العارم مع صراخ العمة التي راحت تصرخ: ما عدنا نريد المطر، ثم يتذكر الكاتب أسطورة

ماكييل الذي وحده من يأتي بالمطر وقت يشاء "إن غضب ماكييل أهون من غضب أبيكم، اطلعوا بسرعة وخلوه لحاله" صفحة 31.

تلك هي اللعبة، أن يكون المطر مع الفقراء نذير شر، بينما العكس في الدنيا كلها هو الصحيح!

أما حكاية (سيدي سلامة) فهي عن الثوار ومقارعة الإنكليز، القصة نفسها التي ستبقى في ذاكرة من عاشها ثم راح ينقلها جيلًا بعد جيل، وما دامت تتناسل بين الخلف والسلف فهي كما يراها موسى حوامدة كحكاية لا بداية لها وليس من نهاية بعدها، وقد تتجاوز في حلاوتها ما كنا نسمعه عن الزير سالم وعنترة والسفيرة عزيزة.

السموع في قلب فلسطين، نبضها لا يكف داخل جسد الأرض وداخل موسى حوامدة، الذي يستحق أن نقول فيه ما قاله الشاعر محمد علي شمس الدين: أنه حكواتي السموع الجميل الذي أضاف إلى الذاكرة القروية المعجونة بالطرافة والخرافة دمًا وسخرية حتى تبدو حكاياته هي حكايات الضحك بالدموع.

لكن موسى حوامدة يستعجل الكتابة، ولو أنه أبطأ في ترتيب أوراقه وصبر على قريته، لتمكن أن يصنع شيئًا أكثر أهمية كما فعل (رسول حمزاتوف) في كتابه المتميز (داغستان بلدي) ذلك أن المستقبل لا يرحم الكاتب الذي يفرط بما لديه من كنوز المعرفة والمعلومات.

ماذا يحدث لو أننا صبرنا على أنفسنا عامًا أو عامين نتفرغ فيها لرسم قرية أو تأسيس فكرة أو بناء رواية؟ ذلك على وجه الدقة هو ما خسره المؤلف في حكايات السموع، من يدري، ربما يكون هو نفسه السبب الذي يحقق الربح لاحقًا إذا ما قرر الصبر على قريته ومنع نفسه من الركض على الورق!

وبالتالي، ربما هي حيرة المبدع ما بين صنف وصنف من ألوان الكتابة، لكنني أرى (الروائي) ماثلًا في الشاعر أكثر مما أرى (الشاعر) ماثلًا في الحكواتي.

انتفاضة الأقصى وقرن من الصراع

هذا كتاب مهم جدًا، ينبغي ترجمته وتصدير أفكاره إلى الدنيا كلها، حتى يعرف الناس في كل أجزاء الأرض حقيقة ما يجري في فلسطين، من مذابح وانتهاكات وجرائم بفعل السلاح المستورد خصيصًا لقتل شعب برمته.

صحيح أن الكتاب هو مجموعة محاضرات قدمها عشرون كاتبًا، لكنه مترابط في تسلسله وغاياته ونتائج ما جاء به أبرز أساتذة التاريخ وهم نخبة من المفكرين والباحثين العرب، بينهم غسان الخطيب ومحمد علي الفرا وعبد الوهاب المسيري.

يشارك (ميشال إده) بورقة عمل يقول فيها: إن شارون ليس معنيًا بالبحث عن أي حل، بل همه الأول والأخير قصم ظهر الانتفاضة مهما كان الثمن.

ويقف المفكر (سلمان أبو ستة) عند حق الشعب العربي الفلسطيني في العودة إلى الديار ويرى أن هذا القرار هو من صلب القانون الدولي، وهو مكفول بميثاق حقوق الإنسان الذي تمت المصادقة عليه من غالبية الدول المعنية بهذا الصراع.

إسهامات المفكرين في (انتفاضة الأقصى) تكشف مختلف جوانب الصراع طوال قرن من الزمان، الذي لا يزال على وتيرته القاسية بينما يواصل الشعب الفلسطيني صموده الذي يقترب من المعجزات، إذ يقول (مصطفى البرغوثي) على الصفحة 393 "بأنه ليس من حل أمام العالم سوى أن يعترف بحق الشعب في استقلاله، ولا أجد في هذا المقام أفضل من استذكار عبارة سمعتها من شيخ فاضل في إحدى المسيرات التي اندلعت في (رام الله) إذ همس في أذني قائلًا: صحيح أن ثمن الحرية غالٍ، ولكن ثمن الذل أغلى".

كان من أخطر نتائج كامب ديفيد، خروج مصر –وهي أكبر دولة عربية– من معركة الصراع العربي الإسرائيلي، مما أضعف الموقف العربي وأحدث شرخًا يتسع سنة بعد أُخرى، ويقول إبراهيم الدقاق في محاضرته: إن الأرض المحتلة هي السد الأخير القائم بين إسرائيل وبين توسيع صراعها مع العالم العربي، بينما يساهم (عبد العظيم أنيس) بورقة عمل عن رؤيته لمستقبل هذا الصراع ويوجز القضية بضرورة الحاجة إلى مشروع قومي عربي شامل في مواجهة المشروع الصهيوني، ويسأل على الصفحة 441: هل تسكت مصر العربية إذا ما حصل هجوم على سوريا أو لبنان في المستقبل القريب؟ ويشير بهذا المعنى إلى دول عربية أُخرى دون أن يذكرها، وماذا سيكون من أمرها إذا تعرضت مصر مثلًا لهجوم إسرائيلي مباغت؟ ذلك أن الذي تنكر لمؤتمر أوسلو وشرم الشيخ وقرارات الأمم المتحدة على امتداد عشرة أعوام مضت لن يمنعه أي شيء من النكوث بأي وعد أو عهد أو ميثاق لاحق.

أما "تيسير الزابري" وهو صاحب شأن في العمل السياسي منذ نشأة منظمة التحرير وعضو المجلس الوطني الفلسطيني منذ عام 1997 فيقول: إن استمرار انتفاضة الأقصى فاجأ الكثيرين وبخاصة الصهاينة منهم لاسيما وأنهم يظنون بأن القرار السياسي الفلسطيني مطوق بسلسلة الاتفاقات المعقودة من أيام أوسلو وحتى شرم الشيخ في أيلول 1999 وأنهم يسيطرون على زمام الوضع الاقتصادي من خلال اتفاق باريس.

ويشاركه الرأي الدكتور جورج جبور أستاذ قسم الدراسات العليا بكلية الحقوق في جامعة حلب والذي عمل مستشارًا ومديرًا لمكتب رئيس الجمهورية ومؤلف كتاب "تاريخ المنظمات الدولية قبل الحرب العالمية الثانية" وهو في الوقت نفسه عضو مجلس أمناء مؤسسة القدس في بيروت إذ يقول: إن ملامح حرب دينية أول أسبابها العمليات الاستشهادية وإن مصير إسرائيل بسبب حرب من هذا النوع لن يكون في صالحها أبدًا، ولعل فكرة الحرب الدينية هي أول كوابيس المنظمة الصهيونية العالمية، ليس في إسرائيل وحدها بل وفي الكرة الأرضية وأينما تكون مصالح الصهاينة!

هذا الكتاب يكشف عن أسرار الموساد دون أن يتطرق إليها، ذلك أن اللعبة الصهيونية لا تكتمل أهدافها دون جهاز المخابرات الذي يقوم بأعمال القتل والاغتيالات السياسية ومطاردة كبار الشخصيات المؤثرة في القرار العربي، ويقول "ميشال إدة" أنه ليس لدى السفاح (شارون) أي قضية غير تجنيب إسرائيل وجيشها الانهيار الكامل من خلال وهم

يركبه بإعطاء الجنود والمستوطنين عمومًا هدفًا وقضية حتى يثبت كل فرد في مكانه ويحارب من أجله، ويكاد يُجمع أكثر من كاتب على أن شارون هذا لا يتمتع بمؤهلات القائد وإنما يملك بعض سلطات رئيس عصابة.

في محاضرته المهمة المعنونة (القضية الفلسطينية إلى أين ؟) يقول الدكتور أحمد صدقي الدجاني وهو كاتب ومفكر ورئيس المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم في منظمة التحرير: إننا أمام حل عنصري مرفوض جملة وتفصيلًا لأنه ينكر على كل فلسطيني الحق بالعودة إلى وطنه على الرغم من الكلام المزخرف الذي يتفنن بإخراجه كل رئيس لوزراء إسرائيل، وقد أصبحت اللعبة مكشوفة ولن تخدع حتى صغار القوم.

وعند محور آخر يختلف عما جاء به أقرانه من المحاضرين، يقول الدكتور مصطفى علوي وهو باحث مصري متخصص في موضوعات الأمن والسلام في الشرق الأوسط: إنه ينبغي على العرب إدراك أن أساس قوة الأمم يتغير بمرور الزمن وينتقل من القوة العسكرية إلى القوة العلمية والتكنولوجية التي ستصبح أساسًا للقوة الاقتصادية والقوة العسكرية معًا، والكثير من معطيات وأنظمة الواقع العربي تحتاج إلى هزة عنيفة وعميقة، وسوى ذلك السقوط إلى قاع سحيق في التوازن مع إسرائيل أو غيرها (صفحة **174**).

يشارك في هذا الكتاب الموسوعة، أساتذة كبار قد نأتي مستقبلًا على ذكرهم وتأشير اجتهاداتهم التي أنارت الطريق أمام دراسة المستقبل العربي

وبخاصة ما يتعلق بالصراع الذي دام أكثر مما يجب مع العدو التقليدي إسرائيل، ومن بين هؤلاء (محمد علوان) أستاذ القانون الدولي ومؤلف (حقوق الإنسان في قانون العقوبات الفلسطيني والأردني) وكذلك الدكتور (وليد عبد الحي) أستاذ العلوم السياسية في جامعة اليرموك، وأيضًا (الدكتور إسحق أحمد فرحات) والدكتور هيثم الكيلاني، إلى جانب أستاذ التاريخ الحديث في الجامعة اللبنانية (مسعود ضاهر) وكذلك الدكتور عبدالإله بلقزيز مؤلف (العنف والديمقراطية) والدكتور علي الجرباوي وقد كتب الكثير عن القضية الفلسطينية، وأخيرًا أستاذ العلوم السياسية والمتخصص في الشأن الفلسطيني وشؤون الحركات الإسلامية الدكتور زياد أبو عمرو.

ويبقى من الواجب علينا، احترام الجهد الذي قام به السيد الدكتور حسن نافعة عند مراجعته الكتاب وكتابة المقدمة التي أخذت ما يقرب من عشرين صفحة التي شرح فيها الكثير مما نحتاج إليه قبل الدخول إلى هذا العالم الشاسع المتشعب الذي أخذ من أعمارنا كل أيامها وسنواتها، فقد صحونا على فلسطين منذ أول الطفولة وستبقى في ضمائرنا حتى آخر شهقة في صدورنا.

تحياتي لهم جميعًا وليتني كنت حاضرًا معهم.

مائة سنة وربما أكثر

لا أميل إلى كتب المختارات القصصية، مهما كانت الفوائد التي يستفيد منها القارئ، وأعني بذلك المختارات التي يجمعها شخص واحد لمجموعة من كتاب القصة القصيرة، والسبب يكمن في مزاجية إعداد واختيار القصص والأسماء ومدى علاقة ومحبة هذا الشخص أو مدى البغضاء والنفور التي يشعر بها أثناء ترتيب المادة أو كتابة المقدمة أو نسبة الضوء التي يرميها على هذا الكاتب دون ذاك.

أما في كتاب (مئة عام من الحكي) إعداد وتقديم القاص محمود الورداني، وهو مختارات من القصة القصيرة في مصر، قدمه بمناسبة اختيار عمان عاصمة للثقافة (2002)، اختاره لكم نموذجًا لمزاجية الشخص الواحد في مسألة اختيار الأسماء والقصص.

وبرغم أنه يقول "أؤكد مرة أخرى أن هذه المختارات لا تستبعد عمدًا هذا الكاتب أو ذاك، بل هي تسعى لرسم صورة بانورامية عريضة لأغلب الاتجاهات والتيارات" صفحة 22 إلا أنه أبعد أسماء مهمة ومعروفة حجة أنها تكتب الرواية والسبب كما سنرى مزاجية الورداني حسب، بدليل اختياره قصة لنجيب محفوظ وهو أكثر كتابنا التصاقًا بالرواية، بينما حذف من فهرست اهتماماته عبد الحكيم قاسم وشمس الدين موسى

ومحمد يوسف القعيد وغيرهم مع أنهم أسماء بارزة في القصة القصيرة ولهم مجاميع قصصية معروفة، شمس الدين موسى أصدر حتى يوم وفاته أربع مجاميع قصصية لكنه خارج حلقة محمود الورداني ولهذا شطب على اسمه تمامًا.

ومثالب الكتاب لا تقف عند حدود اختيار الأسماء، بل يعمد الورداني إلى مدح الموتى بطريقة لا تناسب اهتمامه أو رعايته للأحياء، مثال ذلك قوله "يوسف إدريس حقق معجزة بالمقاييس كلها" أو حديثه عن نجيب محفوظ ويحيى حقي ومحمود البدوي ومحمود طاهر لاشين، واستخدامه مفردات تضخيم كبيرة جدًا، لكنه حين يصل إلى محمد البساطي وإبراهيم أصلان ومحمد مستجاب وجمال الغيطاني فهو لا يقول عنهم أي شيء بل يجمعهم في سطر واحد وبدون صفات أو إشارة أو حتى تعريف عابر، ناهيك عن اختياره القصص التي تجاوزها هؤلاء فنيًا وصارت محض أثر مغمور من إبداعهم القديم، إذ تم اختيار القصص التي نشروها عام **1967** أو **1968**، وخير مثال على ذلك أنه اختار لنفسه واحدة من أفضل أعماله وهي قصة "النجوم العالية" بينما يتم اختيار قصة (الشجرة والعصافير) للقاص إبراهيم عبد المجيد وهي واحدة من كتاباته التي تجاوزها وتخطاها منذ أمد بعيد، وهذا الأمر يتشابه ويتكرر مع سلوى بكر وعبده جبير وسعيد الكفراوي وجار النبي الحلو.

أرى في كتب المختارات مسؤولية تاريخية وبخاصة لمن يأتي من خارج الوطن العربي لدراسة آداب وفنون المبدع العربي، وهذا يعيدني إلى ناقد

عراقي يقيم في هولندا أصدر قبل ثلاثة أعوام مختارات قصصية عراقية حذف منها اسمي واسم القاص المعروف عبد الرحمن مجيد الربيعي، مع أن الربيعي له سبع عشرة مجموعة قصصية ومثلها للثاني، فكيف نبرر سلوكًا كهذا ومتى كانت المزاجية هي الحاكم على رقاب المبدعين؟

هذا الخطأ يتكرر في بلاد غير بلادنا، لكنه يأتي من دور النشر الرسمية التي تحذف وتشطب الأسماء مسبقًا بحسب موالاة هذا المبدع أو اعتراض سواه على نهجها ونظامها، أما أن يكون الكتاب من جهة حيادية فما من ذنب حينها إلا ذنب من تركوا له مهمة الاختيار كما تركوا له الضمير محاسبًا عليه ومسؤولًا منه، ذلك أن المحبة أو الكراهية لا شأن لهما بحقائق التاريخ، وأظنها (عملية الاختيار) واحدة من واجبات القداسة في الفن والثقافة والمستقبل وهي مهمة ليست عابرة كما يعتقد البعض، ومن هنا قلت في أول الموضوع بأنني حقًا لا أميل إلى كتب المختارات ما دام المزاج الفردي محكومًا بها دائمًا.

ليس من شك "أن لكل شخص ما يشتهي" وقد يرى في اختياراته ما يعجبه شخصيًا أو يراه مناسبًا أكثر من غيره، لكن اختيار القصص غير مشمول بهذا الاشتهاء ولا شأن له بالإعجاب أحادي الجانب، وكان على محمود الوردايي أن يسأل أقرانه ما داموا على مقربة منه ويسأل عن القصة التي يرغبون بنشرها، وقد حدث هذا في مختارات كثيرة عراقية وعربية، وفي هذا الحال تأتي عملية الاختيار أكثر إرضاءً للأطراف كلها،

ولا يبقى عندئذٍ غير قصص الراحلين واختيار أعمالهم المفضلة ليس بأمر عسير.

تسع وعشرون قصة قصيرة لم تكن سوى سبع منها بمستوى النشر، والعجيب في هذه الاختيارات أن قصة نجيب محفوظ المسماة (زعبلاوي) واحدة من أضعف ما جاء في هذا الكتاب، تليها في الضعف قصة محمود تيمور (العم متولي) ومن بعدها قصة (الخطوبة) للروائي بهاء طاهر، أما بقية القصص فقد جاءت مثل موج يصعد مرة ويهبط مرة.

من الموج الصاعد نذكر قصة (صيد الغزلان) للقاص المتميز سعيد الكفراوي، وكذلك قصة (جبل الشاي الأخضر) للقاص الراحل يحيى الطاهر عبد الله وتضاف إليهما قصة (بيت من لحم) للقاص الكبير يوسف إدريس وربما كانت هي الأفضل في هذه المختارات القصصية المصرية.

كثيرة هي الأخطاء المطبعية، ولا أدري هل تم طبع الكتاب في عمان أم القاهرة، ذلك أن كلمة (علي) تظهر أحيانًا وقد كتبوها (على) أو العكس، وهذا شيء نراه عادة مع كتب الأشقاء المطبوعة في مصر، حتى عنوان (العم متولي) جاء مكتوبًا (متولى) بلا نقاط تحت الياء، وهكذا الحال مع كلمات كثيرة غيرها، بل ظهرت قصة (أغنية المشرحة الخالية) دون ذكر اسم كاتبها وهو (محمد المنسي قنديل) وإذا بحثنا عن رزمة أخطاء أخرى فسوف نعثر عليها دون عناء كبير!

إنه مشروع مهم أن تلتفت أمانة عمان الكبرى لطبع كتب مثل (مائة عام من الحكي) لكتاب القصة القصيرة في مصر، وعلى غرار ذلك أن تختار مجموعة ثانية وثالثة ورابعة لكتاب القصة في سوريا أو العراق أو المغرب العربي عمومًا، وبذلك تحقق (ضربة معلم) للمكتبة العربية، وكم هو رائع أن تكون المختارات في يد أمينة لا تفرق بين زيد وعمرو، ذلك أن الفائدة ستأتي وهي مقلوبة على معناها وخارجة عن أهدافها، وأرى في مشروع عربي كهذا –إذا تحقق وفق شروط كهذه– حالة من حالات (الوحدة) بين الأدباء وزيارات أدبية تجمعهم على الورق إذا ما تعذر اللقاء فوق الأرض.

كتاب (مئة عام من الحكي) يمتد على 427 صفحة من الحجم المتوسط وهذا ليس بقليل على مختارات قصصية، برغم أن مصر تملك من المبدعين ما نحتاج فيه إلى ضعف تلك الصفحات، ولعل غاية ما أراد الكتاب أن يصل إليه، هو التذكير بأن القصة القصيرة لا تزال أصعب فنون الكتابة كما شهد بذلك فليسوف فرنسا الأول (جان بول سارتر).

بغداد في الستينيات

الكتابة عن مدينة بغداد لها نكهة تختلف عن الكتابة حول أية مدينة أخرى، وقد اعترف بذلك كبار المستشرقين منذ عشرات السنين، ذلك أنها تمتلك من الغرائب أضعاف ما تملكه أية مدينة عربية غيرها، ولها من السحر والفتنة والخصوصية بما يوازي الحديث عن القاهرة ودمشق وبيروت دفعة واحدة!

وقد كتب عن بغداد مئات المؤلفين والباحثين والسياح، وكل واحد منهم قال كلامًا يستحق الوقوف والتأمل والدراسة، حتى أن أحدهم وصف بغداد بالمدينة الطالعة من محيط الأسرار!

وآخر هذا الكتب التي جاءت على ذكر عاصمة الرشيد هو كتاب "بغداد ملامح مدينة في ذاكرة الستينات" من تأليف الباحث المبدع جمال حيدر الذي تمكن من اصطياد الأسواق والأحياء البغدادية وجاء على ذكر الشوارع والميادين والمقاهي كما راح إلى نهر دجلة ليحكي عن أسراره الجميلة بعد أن توقف عند طقوس العراقيين في شهر رمضان وأيام العيد وليالي عاشوراء، كما أسهب في الحديث عن مدارس بغداد وحياة الناس إبان عهد البراءة والمحبة ونكران الذات.

وقليل على هذا الكتاب أن نقول بأنه (كتاب جميل) فهو أكثر عمقًا وأبعد سحرًا وأدق تصويرًا لما كانت عليه العاصمة بغداد أيام الخير قبل أن تغزوها القنابل والطائرات الحربية والحصار، فهو عمل متميز يحكي عن الأزقة المنسية والشوارع الخلفية ودور السينما التي عشنا فيها أحلى أيام طفولتنا ومراهقتنا وبدايات شبابنا.

كتاب مهم حقًا هو بغداد في الستينيات من القرن العشرين، يؤكد على أن بغداد لا تشبه بقية مدن الأرض، ذلك أنها كما يقول الناشر والمؤلف لم تتوحد إلا مع زمنها، وإنما دون غيرها من المدن العربية بل احتفظت بعذوبتها وظلت مطبوعة في ذاكرة الشعوب التي صاغت اسمها كدلالة على النعيم والحياة المرفهة، فهي مدينة تقذف الألفة في وجه ضيفها، وقد مر عليها عشاق وأحبة وأفاقون وقتلى وشهداء، مدينة ترفرف على كتفيك كعصفور سعيد في صباح ندى، أبوابها مشرعة على الدوام لاستقبال رياح جديدة وقلق متزايد، أبواب من خشب ومسامير صدئة وطلاء باهت عفى عليه الزمن مع قدرة خفية غامضة على حميمية العلاقة بين الناس.

المؤلف يأخذنا منذ السطور الأولى نحو مدينة عجيبة تسكن في اللامعقول، تلك هي بغداد الممتدة في آصرة زمنية بين عقدين من الفوضى والهدوء، بين الحرب والسلم، بين الفقر والغنى، وقد تمكن (جمال حيدر) من ولوج عقلها وارتقى عتبات أبوابها وفتح ثغورًا سرية في طرقاتها الخفية!

في الستينيات تغيرت بغداد عما يفترض أن يكون نموذجها، بدأت من نفسها كما يقول المؤلف لتنتهي بها أيضًا، ويبلور ذلك العقد فترة زمنية حاسمة لتذليل العقبات بين الماضي والمعاصر، إنها كما رأينا حداثة أُقحمت قسرًا في جسد مجتمع أبدى مقاومة ضارية لمظاهر ومشاهد كانت تسلب منه شخصيته، لكن سرعان ما تم التوافق بين القيم المغلوطة والقيم التي تم تصحيحها سياسيًا وأخلاقيًا، ثم حدثت تبدلات في تفاصيل الحياة وأنماطها وبانت قيم جديدة على السطح لم يكن من أحد يألفها، سنوات حلت بسرعة وانزوت نتائجها قبل أوانها!

على الصفحة السابعة يقول جمال حيدر: إن بغداد تاريخ عجيب مكتظ بالحرائق والفيضانات والأمراض والحروب، وغزوات صبغت مياه دجلة باللون الأزرق من كثرة ما ألقي به من مخطوطات وكتب وأوراق دونها مبدعوها بعصارة القلب.

ويعترف المؤلف بأنه استفاد من أساتذته في تأليف هذا الكتاب (الخاص) عند مدينة السلام، ويذكرهم دون تردد، بل يؤكد على حضورهم بين السطور، ومنهم "أمين المتميز، عبد الرازق الحسني، عبد العزيز الدوري، علي الوردي، عباس الغزاوي، أحمد سوسة، عبد العزيز القصاب" إلى جانب جيمس ريموند ولسيتد وكتابه المهم الذي يحمل عنوان (رحلة إلى بغداد في عهد الوالي داود باشا).

الفصل الأكثر أهمية جاء في بداية الكتاب، تحت عنوان (أحياء) تسلل فيه الكاتب نحو أزقة الكرخ والرصافة إذ يرى أن الأحياء البغدادية نسخ مكررة لمشهد متشابه، جدران يختفي وراءها حبل طويل من الحكايات والأزمنة حيث برع النجارون بزخرفة الأبواب والشناشيل وغرف الحريم وبقية تصاميم البيت من العتبة حتى آخر باب عند السطوح.

بغداد مقسمة إلى ما يقرب من مائة محلة، هكذا جاء ترتيبها أثر احتلال بريطانيا أرض العراق، يأخذك المؤلف إلى المهدية ورأس الحواش وحافظ القاضي، ثم يثير عليك زيارة الحيد رخانة وباب الشيخ وقنبر علي وسوق الغزل، وإذا لم تشبع عينيك من غرائبها فما عليك غير المرور إلى قهوة شكر وفضوة عرب وحمام المالح والطاطران والكولات وبني سعيد وأبو سيفين.

أحياء بغداد القديمة عصية على النسيان، تتشبث بجدران الذاكرة وتعطيك الحنين مضاعفًا إذا ما ابتعدت عنها، أسرار دفينة خلف الممرات، والشقاوات تعبث في الطرقات الخلفية تجمع الأتاوات وتنافس الحكومة في جمع الضرائب، وغالبًا ما حشروا أنفسهم في صراع الأحزاب، حتى صار هؤلاء (الشقاوات) بعض ديكور الحياة البغدادية في الستينيات وما قبلها.

ثم نذهب مع المؤلف إلى أحياء وأزقة الكرخ، نجلس في مقاهي الجعيفر والصالحية والمشاهدة والشيخ بشار، ثم نكمل الطريق مشيًا صوب

الفحامة والبشواكة ومحلة الذهب دون أن نغفل رؤية العباءات السود في محلة الشيخ صندل وخضر الياس ورأس الجسر.

أما الفصل الثاني فقد خصصه لأسواق بغداد، ذلك أن تاريخ بغداد هو تاريخ أسواقها إذ تستيقظ على نداءات الباعة وصياح الديكة في وقت واحد، ومن أشهر ما عرفنا في بغداد من أسواق نتذكر سوق الوراقين وسوق السراي وسوق الصفافير وسوق العطارين وسوق الصيارفة وسوق القماش وسوق الأغنام.

وينتقل بنا في الفصل الثالث نحو شوارع بغداد وميادينها، وهي دروب سارت عليها أشهر الحكايات، الرشيد والنهر والسعدون والجمهورية، وقد أسهب في الحديث عن شارع الرشيد الذي تغير اسمه عبر العصور حتى استقر على اسمه الأخير ثم يحكي عن ميادين العاصمة جميعها دون أن يغفل عن أي واحد منها، ميدان أو ساحة التحرير، حافظ القاضي، كهرمانة، الأندلس، باب المعظم، الميدان، الخلاني، حتى آخر ساحة في الكاظمية.

ومن الفصول الطريفة في كتاب بغداد، ذاك الفصل الرابع الذي يقص فيه حكاية المقاهي ونشوء أول مقهى عام **1590** التي سموها (جغالة زادة) وبعد عام **1604** بدأت المقاهي تفتح أبوابها لمئات الزبائن، ثم تكاثرت سنة بعد أخرى، ومن أشهرها (الزهاوي) و(البرلمان) و(حسن عجمي) و(الشابندر) و(البيروتي).

ويأتي الفصل الخامس عن جماليات نهر دجلة الخالد الجميل، بينما يمضي بنا المؤلف في الفصل التالي صوب طقوس البغداديين من احتفالات الختان ودورة السنة وأيام عاشوراء وأفراح الأعياد وليالي رمضان وطقوس (المحية) و(الكسلة) كما يخصص فصلاً لمدارس بغداد مركزًا على الثانوية المركزية التي درس فيها كبار الشخصيات السياسية والأدبية أمثال عبد الكريم قاسم ويوسف العاني وعزيز علي وأكر مفهمي وفؤاد التكرلي وحافظ جميل وفاضل عباس المهداوي وبهجت الأثري.. وغيرهم من الأسماء المعروفة.

كتاب (بغداد) أعادنا إلى حزمة ذكريات عزيزة على القلب والذاكرة، وكم كنت أتمنى لو أن المؤلف حكى لنا أكثر مما جاء به، فقد ترك ملامح أحياء لم يتطرق إليها وشوارع رماها على هامش سيرته لكنه قال كلمته بأسلوب محترم لا أخطاء فيه، وكنت أقرأ الكتاب بشغف كبير حتى أنني وقفت أمام (الصور) المنشورة في نهاية الكتاب (خمسون لوحة عن بغداد القديمة) وكدت أذرف الدمع على تلك البراءة العظيمة التي خسرناها دون ذنب سوى أننا لم ننتبه إليها جيدًا قبل أن نفقدها!

تركات لا وريث لها

لا تدري ما هو عنوان ديوان الشعر الذي ظهر مؤخرًا للشاعر العراقي "منصور عبد الناصر" فقد كتب على غلافه الأول "شعر حر" كما كتب "تركات لا وريث لها"

وعند منتصف الغلاف يقول "قصائد خيرة" وما إن تقلب الغلاف حتى تقرأ مقدمة بعنوان "موجز أفكار خاصة عن الشعر" علمًا بأنه هو نفسه من كتب القصائد وطبعها ونشرها وهو الذي قام بتوزيعها وكتب غلافها الثاني الذي يقرر فيه "إن الشعر هو منطلق الفكرة والحركة، هو الحب والتقبل للشرط الإنساني وتحديه، هو النظرة الأولى التي لا يتواصل في رؤاها إلا الشاعر، أما العلم والفلسفة، كما يقول هو نفسه، فيتواصل باكتشاف أسرارها ومنطلقاتها فقط ولا يتدخل بمحتواها الشعري لصعوبة الإمساك به والتعامل معه!".

وخارج الألغاز الجميلة التي تراكمت على طول المقدمة أيضًا، نجد أن هذا الكتاب الممتد على **151** صفحة فقط إنما هو ثلاث مجموعات شعرية وليس مجموعة واحدة، أولها بعنوان "رجل تسرقه الأحلام" وثانيها "قصائد العدسة" وآخرها "تركات لا وريث لها" علمًا أن الجزء الأول يحتوي على ثلاثة أبواب هي "أنا المحاصر بصفاتي" و"ما كان العالم لولاك"

وبينهما "المتخارجون" ومجموع قصائد هذا الديوان ثمانٍ وسبعون قصيدة، أي أن معدل القصائد لا يزيد على صفحتين فقط!

ليس من الصعب الانتباه إلى ولع الشاعر بالعناوين، القصيدة تأتي من أهمية عنوانها، وأحيانًا ستكتفي بالعنوان إذا ما كنت تبحث عن جماليات "الكلمة" وشاعريتها، ومثال ذلك:

– أحدهم في شانه.

– عدسة الخروج إلى الداخل.

– أيام لا علاقة لي بها.

– لستُ جرحًا لأندمل.

وعشرات من هذا النوع اللاذع، الملتهب، الراقص، الجميل من المفردات، لاسيما الجزء الثاني من ديوانه الذي يكرر فيه كلمات من نوع: نثارات، خصوصيات، مقتنيات، كتمان، مكوث، بكاء، وكلها عناوين مقطوعة من قصائد تحمل المعاني نفسها!

ولا غرابة في أنه يقول في موجز فكرته عن الشعر: النص كمعطى وخطاب هو حرية القدرة على ترك القلم يكتب نفسه دون وسيط وهو نوع من "اليوغا" أو التأمل وسط ركام هائل من الغيوم، فقد ترك القلم يكتب لنا، ودون وسيط:

كنت أقطع الكلمات

من ورق الحديقة

وأزرعها في القلب

وهذه قصيدة كاملة جاءت بعنوان "عدسة الثقفي" بينما نراه في قصيدة عنوانها "عدسة السماء" يقول:

السماء حجةٍ

لمن حلق

فارغًا

كي لا يعود.

وثمة عدسات كثيرة على هذا المنوال، منها عدسة الأماكن وعدسة الزمان وعدسة الطفولة وعدسة النوايا وعدسة الأنياء وعدسة الضجر، إلى جانب عدسة الوعيد وعدسة الحرب، مع عشرين عدسة عن الصعود والخروج والدخول والكتابة والغفلة والبراءة والصمت!

هناك رغبة في كتابة الشعر، ورغبة عارمة في أن يكون المرء شاعرًا، وثمة رغبة مزدوجة في رؤية "كتاب يحمل اسم كاتبه، ورغبة رابعة في كتابة إهداء عليه كما فعل منصور عبد الناصر حين أهدى "تركاته" إلى الأب

والأم والأهل والأصدقاء وإلى ساجدة والجميع إلا هو، فقد رفض الإهداء لنفسه إذ اكتفى برؤية اسمه على غلاف أزرق وتحت اسمه تركات لا وريث لها، وإذا ما فتحت الديوان على الصفحة **66** ستقرأ:

كلمات حلقت النوارس
تذكر البحر أخطاءه
كلما حلقت الصقور
تذكرت الأرض سيوفها
أما أنا..
فأتذكر ذلك الحب..

وهذا خير دليل على رغبة المرء في أن يكون شاعرًا، وهو نفسه السبب الذي دفع العشرات إلى طبع أعمالهم على حسابهم الخاص لئلا "تندثر" المواهب تحت ركام المزاج والنسيان، قد صدرت في بغداد وحدها عشرات الدواوين المنسوخة على جهاز فقير وعلى أوراق أكثر فقرًا من أجل إثبات الذات قبل أن تذهب الرياح بسفينة الإبداع وأمواج الذاكرة.

تنظيرات الشاعر في مقدمته سبقت ما يكتبه من قصائد، إنها أقرب ما تكون إلى بيان من طرف واحد لا يريد أن يشاركه أحد فيه، إذ يقول "الشعر متعة ومعرفة، والمتعة هنا بمعناها المتجاوز، لا تحقق في ما هو مبتسر ومكرور، بل بما يضاف على المنجز السابق متعكزة على كاتبها ورؤيته

الخاصة، وشاعر القصيدة بحكم اختلافه كفرد وكمبدع، هو بروميثيوس بمعنى من المعاني، ولكن هل يمتلك الشاعر المعاصر بصيرة بروميثيوس؟".
وحتى يثبت (رؤيته الخاصة) كتب في قصيدته "لا أحد" يقول:
لا سبب... لا شيء.. يشفع... لكتابة... شيء.
ولا أحد.... يشفع... لمن لا يكتب!

ربما بسبب كثرة الشعراء في العراق، يحاول كل (واحد) منهم كتابة شيء مختلف مهما كانت غرائبية القول الذي يرسمه على الصفحات البيض، وقد كتب أحدهم قصيدة على هيئة حافلة راح يشير بالأرقام إلى عدد الجالسين فيها، ثم يقول في السطر الوحيد منها "أنا الرقم 14 من اليمين"!

وعندما كتبوا نقدًا في غير صالح تلك القصيدة أجابهم الشاعر بالقول: إنكم بحاجة إلى رؤية العالم وأين وصل! ثم رجع إلى هلوساته الطريفة وكتب قصيدة ثانية رسم فيها خمسة صناديق مفتوحة من أسفلها وشيء ما يتسرب من خصاصها وكتب في أسفل الصفحة – القصيدة ست كلمات جاء فيها:

حتى الصناديق ثملت من الثرثرة والحنين!

لكن منصور عبد الناصر كان أذكى من جوقة (العجائب) عندما كتب شيئًا لا اعتراض عليه، لكنه في النهاية قد يصب في المجرى نفسه، إذ يقول على الصفحة 29 في قصيدة عنوانها 1×3:

لست في هذا العالم
لأنتحر
أنا لحظة
أبحث عنها
أنا لك أبدًا
لو كنت لي
حلمًا..
لا أعرفه

وتنتهي (القصيدة) هكذا، فهي تملك فلسفتها في كونه لحظة يبحث عنها، ثم أنه ما جاء العالم بعد تسعة شهور من المخاض حتى ينتحر، وهذا أفضل بكثير من الحافلة التي يجلس فيها ذاك الشاعر المرقم 14 كما أنها عقلانية من الصناديق الخمسة التي سكرت من الحنين والثرثرة!

يبدو أن الشعر يحاول أن يبقى (ديوان العرب) والشعراء في صراع من أجل حلم كهذا، وهو حق مشروع، لكن عثرات الطائر أو رسم الطرائف أو لعبة الكلمات المتقاطعة أو الرجوع إلى المناهل والقواميس أو إعادة القافلة إلى الواحة لن يحقق في آخر المطاف غير (ديوان) للفرفشة وتبادل الغرائب والعجائب التي تسمى شعرًا في مكان ما وفي زمان لا نعرفه، وهي كما نرى تركات لكن لا وريث لها.

القسم الثاني

في ورشة الكتابة

حكاية رواية ضائعة

لم أعش في إيطاليا بما يكفي لكتابة رواية عن أسرارها، رأيت روما وتيريستا ونابولي والبندقية، لكن اكتشاف الحسنات أو العيوب، يحتاج إلى وقت أطول من صبري وبرغم ذلك قامرت بما أعرفه عن روما وبما عشته في تيريستا وبما أحببته في فينيسيا وبما أوجعني في نابولي، وقلت لنفسي: إن الكتابة مغامرة تستحق أن نحياها مهما كانت الخسائر.

***

في السابع من تموز 1997 انتهيت من كتابة "الطاطران" بعد أن كتبتها أربع مرات وانشغلت بها ما يزيد على واحد وعشرين شهرًا، لكنني فوجئت برفض نشرها في القاهرة مع أن السيدة راوية عبد العظيم أعطتني ثلاثمائة دولار قبل أن تقرأها، كما فوجئت بقرار اتحاد الكتاب العرب في دمشق تأجيل النظر فيها إلى إشعار آخر، وهو تعبير دبلوماسي أنيق المرفض، ثم أخذها مني الشاعر وليد صوالحة وأغراني بقوله:

– هذه الرواية ستأتيك بخمسة آلاف دولار.

ثم مضت الرواية دون رجعة وبلا نتيجة، وعلى غفلة من ذاكرتي المعطوبة رأيت أن الرواية قد رحلت إلى دمشق وعمان والقاهرة ولم تعد من نسخة معي!

ويوم خروجي من العراق عام **1999** حاولت ترميم ما تبقى لديّ من مسودات لا رواية، إذا بها أقل مما أصبحت عليه في الكتابة الرابعة، وكان ينبغي حينها الرحيل عن الوطن وترك كل شيء ورائي عساني أتمكن ذات يوم من العثور عليها في عمان أو دمشق أو القاهرة.

***

لكن السنوات والشهور تمضي دون جدوى، وأنا في حالة بحث عن "الطاطران" حتى التقيت الصديق الروائي نبيل سليمان، الذي أخبرني أن الرواية لم تزلْ هناك في مبنى اتحاد الكتاب العرب وأنه شخصيًا تمتع كثيرًا بقراءتها ولا يدري السبب وراء تأجيل نشرها.

ثم حاول الرجل أن يعيد المخطوطة، لكنه على ما يبدو لم يتمكن من ذلك حتى اليوم، مما كان أمامي غير السفر إلى القاهرة أسال عن نسخة من الرواية التائهة في الشوارع الخلفية والممرات والدروب، حتى عثرت على راوية عبد العظيم التي قالت:

– ثمة من جاءني وأخذها مني حتى يرجعها إليك.

وما أعادها أحد منذ خمسة أعوام!

أما الشاعر وليد صوالحة، فما زالت أحلم بما سمعته عن الكتر الذي ستأتي به الرواية حال نشرها، لكنه اختفى تمامًا ولم أعد أسمع غير رنين تليفونه في عمان الذي ما من أحد يرد عليه!

ثلاث نسخ من "الطاطران" ذهبت مع الريح، وبي رغبة عارمة لطبع هذه الرواية ونشرها، وها هو الوقت يمشي من سنة إلى أخرى، وأنا في حالة شوق إلى امرأة من كلمات وحروف ونقاط، يأخذني العشق إلى كومة أوراق تركتها ورائي على أنها أمانة في اليدين، فما عثرت على مفتاح الصندوق، ولم أجد الصندوق أصلًا.

***

فجأة، تذكرت أنني طبعت الرواية على الآلة الكاتبة بأربع نسخ، وهذا يعني أن نسخة منها لم تزل في مكان ما، حينها رحت أضرب رأسي على يدين، حتى تذكرت من يملك النسخة الرابعة والأخيرة.

وها هي الرواية بعد خمس سنوات على خروجها من بيت الطاعة ترجع بين أصابعي وهي تبتسم خجلًا من طول الزمن الذي قطعته بحثًا عنها..

هل رأيتم رواية تبتسم لكاتبها؟

***

الطاطران لا تشبه بقية أعمالي، وقد نظرت إليها على أنها جزء من ثياب الشيطان الذي يطاردني منذ طفولتي، وهي على جانب كبير من الوقاحة

والجرأة، حكيت فيها الحقائق كما رأيت هناك، ما بين روما وبغداد، وربما أعطتها المخيلة نصيبًا من الرتوش والماكياج، فهذا هو ما يفعله الخيال حين يأتي لزيارتنا في صومعة الكتابة.

قبل كتابتها قرأت (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم، و(موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح، وكذلك (الحي اللاتيني) لسهيل إدريس، و(قنديل أم هاشم) ليحيى حقي، وكل هذه الروايات المهمة تسأل في صراع الحضارات،

أما "الطاطران" فقد ذهبت إلى الطابق السفلي من المدينة، ربما تحتاج إلى ضوء يكشف الزوايا والمنحنيات وسلالم النزول إلى القاع.

فهل تراني تمكنت من الدخول إلى هناك؟ ماذا يفعل الكاتب المبدع بحزمة التجارب التي يملكها؟ إنها تصحو وتنام قرب فراشه ليل نهار، وإذا لم يكتبها سوف يراها تسكن في ثيابه وتمشي معه في الطريق وتشرب الشاي في المقاهي بصحبته، إنها ترغمه على أن يتخلص منها وذلك بالكتابة عنها، وهذا ما فعلته في رواية "الطاطران" يوم كتبت عن تجربة طال بي العيش في شعابها وذكرياتها وأبطالها، وهي على أية حال محض حكاية طريفة عن أوهام الرجل الشرقي الذي يخترق حصون (الغرب) بفحولته وحدها كما لو أن أوروبا خالية من الرجل كما خدعنا بذلك أستاذنا الجليل "الطيب صالح" في موسم هجرته إلى الشمال!

وكتابة الرواية لعبة في غاية الخطورة، تشبه إلى حد كبير تجربة الرجل الذي دخل صالة القمار لأول مرة، فهو يرى الكثير من المال أمام عينيه ويظن أنه سيأخذ نصيبه من هذا المال الوفير، حتى إذا ما بدأ اللعبة وراح يخسر أدرك فورًا أن المال لا يأتي بالسهولة التي يتوهمها أمام عينيه، والحال لا يختلف كثيرًا مع كتابة الرواية، ذلك أن الكلمات متوفرة وكذلك الأوراق والدفاتر والأقلام والأفكار أيضًا، لكن الفوز برواية محترمة لا يأتي أيضًا بالبساطة التي يظنها البعض، ولهذا السبب نرى كل يوم عشرات الروايات مهملة هناك بين أكوام الكتب التي تباع بالجملة والمفرد ولا تعني الكثير لمن يراها على قارعة الطريق!

وسأعترف بأنني قامرت بروح عنيدة وغامرت بقلب شجاع يوم قررت الكتابة عن تجربتي في روما وتيريستا ونابولي والبندقية مع أنني –كما قلت– لم أعش هناك بما يكفي لكتابة رواية عن أسرار تلك المدن العجائبية الرائعة.

كنت أجلس أمام الورق وقباله آلتي الطابعة في بغداد وأنا في حالة خوف تصحبها حالة عشق لكل ما جرى هناك في (بياتسا دي نافونا) أو قرب نافورة الأماني (فونتانادي تريفي) أو على سلالم (بياتسا دي سبانيا) أو في كهوف الغجر وحانات الهيبيز، أنا العراقي القادم من حارة الكسل ومن خلف التنور الذي تصنع فيه أعجب وأجمل وأطعم رغيف خبز في زقاق الفقر والمهالك، جئت بلادًا لا تشبه البلاد التي ترعرعت بين نخيلها وحروبها وبناتها الخجولات، أبحث عن فرح طال رحيله عنا، أجلس في

بارات تضحك من شدة الضياء وفرط الزخرفة، أحاول جمع مساماتي فوق جلدي لئلا أتناثر من قوة الجمال الذي أحاطني، يومها صرخت في الشوارع العريضة الساحرة "من علَّم روما أن تكون روما؟".

وما كنت أظنني سأكتب عنها، فقد تهادى العمر على جانب الأحزان والقمع والأوجاع والتعب حتى جاء اليوم الذي بدأت به كتابة أول سطر من الرواية، قلت فيه "لم أكن في روما غير أصبع مغمس في العسل" ولم أتركها حتى انتهيت منها، ويوم رأيتها تغازلني وتبتسم قلت لنفسي بخوف حقيقي:

– ماذا تراني سأكتب بعدها؟!

نعم، خرجت من صالة القمار، ولا أدري حتى هذه الساعة كم هو الربح وكم كانت الخسارة، فهذا ما سأعرفه عندما أرى "الطاطران" في أكشاك الصحف والمجلات وفي سوق الكتب، ذلك أن الربح أو الخسارة في صالات الإبداع لا تحدده أنت وحدك، ولهذا قلت إن كتابة الرواية لعبة في غاية الخطورة، وينبغي علينا أن نفكر ألف مرة قبل الدخول إلى بحرها العميق المخيف، إذ لا أحد يدري أي نوع من الأسماك سيكون بانتظارنا.

وبرغم ذلك، ترانا نعوم في البحر العميق المخيف، مرة بعد أخرى!

بسبب الغربة التي صارت هي المأوى، وأيضاً بسبب ما أراه من شتات صعب يعاني العراقي منه الكثير، وجدتني أزهو بما يفعله أي مبدع في المنافي، أشعر بالسعادة تغمرني كما الأطفال عندما أقرأ خبرًا عن كاتب أو موسيقي أو روائي أو مطرب نال قسطًا من النجاح في هذا البلد أو ذاك.

وقد سمعت في الشهور الخمسة المنصرمة، عناقيد أخبار محترمة ومهمة من الفنان "نصير شمه" وكيف أنه أحيا حفلة عزف في مدن إيطاليا وفي روما العاصمة ثم رحلته المتشعبة بين الدول العربية مع فرقة "عيون" التي نهض بتأسيسها وصارت علامة فارقة بين بقية المجاميع الموسيقية العربية المعروفة، ثم جاء صوب "عمان" وأعطى الكثير من نسيم الرافدين، وقد أضحك وأبكى وهو يلامس أوتار العود فقدم معزوفته الشهيرة (حدث في العامرية) وحوارًا بين جميع آلات العزف من كمان ورق وعود وناي وجلو، وراح يتألق في تلك القلعة القديمة التي ضجت بالصفيق له ولفرقته الجميلة.

كنت حينها أفكر: ماذا كان سيحدث لو أن "نصير شمة" راح إلى واحدة من حروبنا الرهيبة؟ ماذا سيكون مصيره بين الدبابات والمجترات والقنابل وشظايا المدافع وقصف الطائرات؟ لا بد أنه سيموت برصاصة طائشة أو لغم مغطى بالتراب، وربما يعود حيًا من الحرب مع عوق بسيط في أصابع يده اليمنى، وماذا سيعني ذلك كله؟

يعني أننا خسرنا واحدًا من أفضل مبدعينا في الموسيقى، يعني أننا لا نفهم قيمة البشر، ويعني بالضرورة أننا أمة لا تحترم مبدعيها ولا تكترث لمواهبهم الكبرى في الأدب والفن والفكر والفلسفة، وأن التخلف سيبقى أساس حياتنا في ظل الجهل واللا مسؤولية.

أصابني شيء من الفزع وأنا أتذكر قتلانا وموتانا، أولئك الأحبة الذين غادروا بسبب المعاناة التي دامت أكثر من صبرهم، إنني أتذكرهم بحسرة كبيرة وأسأل نفسي كيف رحلوا بهذه السرعة؟ أين موسى كريدي ومحمد شمس ومحمود جنداري وضرغام هاشم وعزيز السيد جاسم ونصر محمد راغب ومحسن أطيمش وأسعد محمد علي وحميد المختار وشوقي كريم ورعد عبد القادر، أين عبد الجبار كاظم الرويعي وإسماعيل الشيخلي ومحمود البركان ومحمد صبري وفارق محمد؟ كيف قتلوا حسن حنيص وصباح السهل وغازي ثجيل؟ لماذا يموت صاحب الشاهر وإسماعيل عيسى وما تجاوزا الثلاثين من العمر؟ ماذا حل بأرض الفرات الحزين؟ أي موت هذا الذي أصاب حياة شرارة وسامي النصراوي وغانم محمود والفنانة الكبيرة زينب؟!

شعرت فجأة بالخوف على نصير شمه وعلى كل مبدع كبير لا يزال على لائحة انتقامهم، لكن عزف هذا الفنان رحل بي إلى عالم من الصفاء والنقاء والمطر، وتفاقم خوفي عليه فعلًا.

إنها أول مرة –بحسب ما أظن– مجيء هذا العدد العجيب من المعجبين بعازف عود، عزيز على النفس هذا النجاح المذهل الذي حصل عليه نصير شمه الذي سميته ذات يوم بالباز الرومي وبلبل العراق، هذا الفنان المغرد على امتداد الوطن العربي، الموسيقي المرهف حد البكاء.

قرأنا في إحدى الصحف قبل عامين خبر عزفه في دمشق، كيف جاءته جموع الناس من كل حدب وصوب، وكيف أن الزحام حوله وعليه صار أكبر مما اعتدنا رؤيته على "عمرو دياب" و"مايكل جاكسون" في إشارة صادقة إلى أن الفن الكبير هو الأبقى، وأن الفنان الأصيل هو الذي يمتزج مع التاريخ والإنسانية ورقي الذوق معًا.

كانت الشرطة في دمشق –بحسب ما ورد في الخبر– بحاجة إلى وقت ليس بالقصير حتى تحقق الأمن والسلامة للعازف والجمهور، فهل كنا سنحتاج إلى رجال الشرطة إذا لم يكن "نصير شمة" من ذاك النوع الحقيقي الممزوج بروح الفن وروح الأصالة؟

مبروك "لنا" هذا النجاح قبل أن نبارك هذا الطائر الدوري، القمري الأخضر المجنون بالفن، وأعني به صديقنا الهدهد، الحسيني، الراهب في صومعته، ملك الطيور التي تشدو وتهدل وتنوح وتزقزق في الغربة والمنافي، أعني ثانية: مبروك هذا الحب وهذا الوفاء وهذا الإعجاب الفائق بفنان العراق نصير شمه.

يا لها من بهجة مسبوكة في القلب على هيئة إنسان، هكذا يخدم الفن، وهكذا يقطع حبل النجاح، وهكذا يقول كلمته الأولى أمام العالم، ذلك أن النجاح ليس محض كلمة للتسويق ولا مجرد كلمة للاستيراد كما يفعل معها بعض شعراء المناسبات، وليست كلمة للتصدير والتقسيط المريح المزور كما يفعل بها تجار الخردة والطبالة والكتبة والديناصورات المحنطة في شارع المجاملات.

نجاح نصير شمة أعطاني دفقة حب ولوعة وحنين إلى كل شيء نظيف في الدنيا، فهو نجاح للفن العراقي أولًا وليس للأبواق المشحونة بالأكاذيب، كما أنه نجاح للإنسانية في كل مكان، وليس نجاح (المجتهد) الذي أثبت بالملموس "أن الفنان المبدع لا يحتاج إلى الجنود المرتزقة ولا يحتاج إلى العرفاء وباعة التذاكر بالتهديد ولا يحتاج إلى فقرة مسروقة في التلفزيون كما أنه لا يحتاج إلى سيف أو حصان جامح، هو الأمير من دون تاج عليه ومن دون جوقة مداحين يحومون حوله أو عليه، وعندما يفوز نصير شمه بهذا الحب الكبير فقد فاز في الوقت نفسه كل عراقي على امتداد الأرض، ويفوز بذلك الأديب المبدع والمهندس الفنان والكائن الشعري على مساحة طولها النخيل في البصرة وعرضه الجبال في كردستان، يفوز بهذا الفوز دجلة والفرات ويفوز السياب والجواهري وموسى كريدي ومحمود جنداري وهم في مثواهم الأخير، يفوز المظلوم وهو يقبع في السجون، وتفوز المرأة وهي وراء التنور أو في حرم الجامعة، يفوز العراق.

عيني عليك (باردة) يا نصير شمه، فأرجوك أن تحافظ على أصابعك الثمينة، وأعني بذلك أن تحافظ على حياتك كلها، عفوًا، أعني بهذا أن نحافظ جميعًا على رفعة العراق ورفعة أهله وسمو سمعته ورهافة إحساسه، أن نكون القصيدة الكبرى وليست قصيدة الدينار وأن نكون القصة الصحيحة لا قصة المدح والتطبيل ومسح اللحن وأن نكون الرواية الشهادة لا رواية لكاتبها، وأن نكون العزف (غير المنفرد) في أوج الذل والموت والحروب.

يمكن الآن أن تعزف كل يوم يا نصير شمه، الروح تسمعك وكذلك القلب، اعزف، اعزف، حتى يسمعك ضرغام هاشم وحميد المختار وصباح السهل وصاحب الشاهر، ومن المؤكد أنهم سعداء بما سوف يسمعون، ذلك أن الروح أول من تسأل عن ثمن موتها، لماذا؟ وكيف؟ ومتى تكتب الجواب؟

أنت كتبت، فشكرًا.

المدينة هي التي تسكن فينا

المدينة هي التي تسكن فينا، بعد أن يطول السكن في شعابها وأسرارها، وأعجب حالات الزواج "بين الجماد والبشر" هو قران الروح مع الشوارع الخلفية والممرات والأزقة والمنحنيات والفروع والحارات التي سوف تسمى فيما بعد مدينة بغداد أو القاهرة أو بيروت أو دمشق أو رام الله.

لا توجد رواية بلا مدينة، لكن ثمة مدن لا روايات عنها، وليس هذا بغريب، فالكرة الأرضية مزحومة بالعجائب، وإحدى عجائبها المدن الملغاة من الذاكرة، وأعني بها المدن التي انطمرت خلف التاريخ وما أنجبت مبدعًا يكتب عنها أو يؤشر فلسفتها وشهيقها، ثم تمشي عجلة الأرض اللا مرئية وتدور مليارات المرات فيأتي من يقول "هنا عاش الإغريق" أو "هناك مدينة الأنباط" أو "هذا طريق الحرير" صوب أوروبا ونحو مرافئ المنسيات وصحاري المتروك وراء المذكرات!

وقد فوجئت شخصيًا بمدينة طالما عزف عليها الماضي أجمل مغازلاته وأكثر أغنياته طربًا عاش فيها ومات على صخورها العشرات من ملوكها وأسيادها، لكن لم يكتب أيما ابن من أولادها شيئًا عنها، فاندثرت حكاياتها وانقصم ظهر بعيرها حتى دون قشة تضاف على حمولته، وكان ما كان من أمرها، لكننا لو جئنا على نوع صخورها وعلى رسوم أطفالها

وعلى أزاميل رجالاتها، لرأينا المعجزة مسبوكة على هيئة مدينة كان اسمها "البتراء" لم يكن حلمًا، فقد مضت هذه المدينة خلف التاريخ حتى سبقته في البقاء برغم زوالها.

سأحتاج إلى وقت أبعد من خربشات الذاكرة وأعمق من تلافيف العقل حتى أصدق ذاك اللامعقول وهو يغازلني في صحوي وخمريتي والذي أخرجني من حالة الكتابة إلى كتابة الحال، ومن جنون الرؤيا إلى رؤية الجنون، ومن رسم الغرائب في قصصي إلى غرائب ما رأيت من رسوم وحكايات أعجب من حقائق الزمن الذي نحن فيه.

لم يعد من شك بعد الذي رأيت، من أن الطبيعة أعظم حقًا من الفن، فهذا فراغ بين جبلين كما لو أن سكاكين كثيرة اشتغلت على الحيطان، لو حاول مليون فنان ومهندس صناعة جزء واحد من هذه (الخربشة) العجائبية لما تمكنوا من تحقيق لوحة أو حلم كهذا، ذلك أن الحجر يشبه السائل الناري الذي نراه في الحمم البركانية، فهناك فوهات وشبابيك وأبواب وطيات صخور تميل على أجساد نائمة، حيوانات برؤوس جبلية وانتفاخات في بطن الجبل وعند رأسه وتحت حاجبيه، هل ثمة بطن ورأس وحاجبان للجبال؟ نعم، في البتراء يمكن أن ترى ذلك كله، وربما كانت تلك أول مرة أرى فيها جبلًا عليه ما يشبه الحروف الفرعونية والسومرية وكلها تبكي بدموع من حجر، كان هناك من يكتب الرواية عن أسطورة مدينة، وبأي أسلوب كان يكتبها؟!

هناك جبل على هيئة سفينة، وآخر على شكل قلعة محطمة، ثمة جبال ناعمة مفككة، واحد يشبه فارسًا يمتطي صهوة حجر هائل، والثاني على شكل غيوم سوداء تخرج من باطن الأرض، جبل يمشي مثل دبابة وآخر ليس غير (قبلة) بين صخرتين مائلتين من حرقة الشوق والشمس معًا، لكنها كلها تسيل كما البراكين صوب لا مكان، بل ترى جبلًا تبرع بجزء من ثيابه وزركشاته وصارت نثاراته على الأرض أجمل مما كانت وهي على رأسه كما التاج!

عشرات الحيوانات نراها في أعماق الفتحات والشقوق والثغور، ديناصورات لم تنقرض بعد، ذئاب، أفاعٍ، فيلة، غزلان، حتى اللقاق ستراه تحلق فوق الجبال ولا تطير، مصنوعة من زوائد أو ربما من انزياحات حصلت عبر آلاف السنين، ليس من أحد يمكنه فك طلاسم تلك النثارات المهمولة التي جثمت على الأرض، كم هو عمرها؟ من أين سقطت ومتى انسكبت هكذا كما الماء على نار هائجة جامحة؟!

جبال على شكل (كماشة) تخنق بقية الكائنات بلا رحمة، جبال على هيئة عراك وضرب بين اثنين، وثمة سلسلة أخرى هنا وهناك ستراها مثل زورق كبير مثلوم أو نيزك في لحظة سقوط وربما قرد هارب من لهبة نار، وقد تكون قبعة في مهب الرياح أو سمكة أو امرأة تبكي بدمعة واحدة على خدها الأيسر، إنه الفن الرباني في أعظم أسراره، حيث ترى التيجان الذهبية بلا رؤوس، وأبوابًا مفتوحة على خناجر من صخر لامع، وقلاعًا مهجورة وعلى بعد جبلين كما اليتامى ثمة أسد وحيد بلا حاشية وعنقود

عنب من أحلى الصخور، ثم قبعة أخرى لروبين هود الشهير مع ريشته التي ظهرت في نهاية القبعة.

كتابات الأطفال على الجدران هي الرواية الوحيدة التي خطها زمن البتراء، وينبغي علينا أن نصدق المستحيل في مكان كهذا، فهل نطق الحجر ذات يوم في تلك الكهوف المحفورة بالأصابع؟ نعم سمعنا لغة الصخور أكثر من مرة، ورأينا النسر يمد منقاره صوب فضاء الله وهو يهبط على انثلام كبير بين جبلين، والنسر نفسه لم يكن غير صخرة على هيئة طائر عنيد ها هو يهبط ثانية على انثلام مقطوع بين عالمين.

لا تدري كيف انثنت الجبال تغازل بعضها، وكيف مرت السنوات على أغرب قصص الحب بين هذه الكائنات التي ترفض الكلام في حضرة البشر، تعال واسمعها ليلًا وأخبرني ماذا يقول هذا المارد الشاهق صوب السماء، وماذا قالت تلك الصخرة الرابضة فوق مئات الصخور، لغة من الجبروت المكتوم والكبرياء المغلف بالكتمان، ليس من الصعب أن تسمع الجبال وهي تضحك تحت زخات المطر، يمكنك التقاط صورة فوتوغرافية لهاذا لجبل المكابر وهو يحتمي من رذاذ البرد بقبعة أو مظلة من ألياف الجرانيت، يبتسم بفم مغلق ويرفض أن يعترف بذنوبه مهما طالت إقامته فوق نسيج الرمال، وحتى لو أجبروه على الوقوف هكذا ملايين السنين، ذلك أن جبال البتراء من النوع الذي ينتمي إلى حزب البقاء ويؤمن أن الخلود هو نبراسه الوحيد.

رأيت أبا الهول ومن خلفه أسد بابل، ثم فيل عملاق، وزقورة من بقايا الخيال، وعلى بعد أمتار لا تزيد على مائة متر ثمة جماجم مبقورة وشخص كبير الرأس ينظر إليك بريبة وتوجس، ثم ماكينة خياطة وثلاثة رجال بعنق واحد، هنا جمل مقطوع السيقان يجثو على بقايا قصر شامخ، وفم يصرخ مع أنف مجدوع، وهناك سلال فاكهة محشوة بالصخور المضيئة وطفلة تنظر خلفها بهلع، يمكنك أن ترى ما تشاء وما عليك غير أن تمشي عبر أزمنة الصحراء، فهي رحلة إلى (المعقول) الذي لا يصدق، ذلك المكان المحفور في الصخر، ربما عشرات الأعوام من أجل حفر "ضريح الجرة" وأكبر من ذلك قدس الأقداس ناهيك عن "صرح الأفعى" بعد سلالم حجرية يزيد عددها على ألف من درجات المرمر، أصابتني القشعريرة حقًا من هول ما رأيت، أتساءل مع نفسي: هل يمكن للبشر على ضعفها الجسدي أن تفعل كل هذا؟ ألا يمكن سهواً نزول حضارات أخرى من أجرام قريبة من كوكب الأرض، إنها جاءت ذات سنة غامضة لزيارة كوكبنا وراحت تلهو على سطح أرضنا بإنشاء كل هذه (العجائب) التي لا يستوعبها العقل بسرعة؟

ترى كيف نفسر هذا البهاء الساطع الذي يكمن في (مدينة البتراء) الوردية؟ أي أزميل سحري حفر في تلك الصخور الصماء التي تشبه الحصى والعباس والمرجان؟ ولا أحد يدري ماذا عن بقية خباياها وصناديق أسرارها، فما هو مكتشف منها أقل من ثلثها، وبرغم ذلك (العجب) الذي تسلل في عروقنا، ما من رواية واحدة ولا حتى قصة

قصيرة طلعت من شرايين تلك المدينة الغرائبية المطمورة تحت رمال النسيان أكثر من ألف عام!

هل تراها سكنت في أهلها تلك المدينة البتراء كما يسكن البشر في البيوت؟ هو السؤال الذي سنعرف الجواب عليه حين نرى بغداد ونقرأ عنها، وحين تمضي القاهرة في أوردتنا ونحكي عن تراثها الغني، وحيث تجلس بيروت في غرف نومنا وتغازل كشكشات ثيابها البحرية العذبة، وحين تتهادى دمشق بين الصبايا في مدارس الصباح.

والرواية أفضل من يغازل المدينة ويكشف أوراقها ويغري ما كان مدفونًا تحت ترابها وخلف مراياها المخادعة، الرواية خارطة المدن، نعرف منها الدكاكين والبارات والأسواق والمقاهي وبيوت اللذة، نكتشف الخرائب والأطلال ومقرات الشرطة والمعتقلات وأسلاك السياسة الشائكة.

وسوف أكرر: ليس ثمة من رواية بلا مدينة، حتى إذا راح المؤلف إلى الفانتازيا وصار يخدعنا بغياب البشر أو شطب المكان، فلا بد من إشارة هناك إلى نقطة ضوء تأتي من وراء السطور تكشف اسم مدينة سوف نمسكها بأصابعنا قبل أن نغلق الكتاب وننتهي من الحكاية.

عجائب بالجملة!

عجيب غريب أمرها الحياة، والذي يدور فيها أعجب منها وأغرب، فكم من قوي تهوى وكم من ضعيف تسلط فيها، كم من غني أفلس في حين غفلة وكم من فقير راح يصعد فوق أكوام الدنانير.

أتذكر ذاك الممثل النحيل العجوز الذي عمل في السينما المصرية ما يزيد على خمسين سنة وما كان دوره يتعدى مهنة (بواب) أو (متسول) أو (ساعي بريد) أو عامل نظافة أو موظف (طفران) على كومة من (العيال) أو معلم ابتدائية في قرية من صعيد مصر، حتى جاء المخرج مصطفى العقاد وأعطاه دور (ملك الحبشة) والصولجان في يده يأمر وينهي على رقعة شاسعة من المكان.

الحياة هكذا تمامًا، كما السينما، فيها عجائب وغرائب، وربما نسمع ونقرأ ونرى ما يفوق الخيال في أحداثها التي لم تخطر على بال أعظم الروائيين وأفضل كتاب الخيال العلمي، وأمامي الآن رواية لكاتب عراقي يحكي فيها قصة رحلته بين مدينة (نيس) وميناء (مارسيليا) في فرنسا، ثم رحلته بالقطار عبر أوروبا والنساء اللوايتي عرفهن ما بين روما والنمسا وبودابست ولندن، وخليط جميل من العواصم والبارات والشقق

الحمراء، مع إن الكاتب المبدع هذا لم يسافر خارج العراق ولا مرة واحدة بل هو لا يملك حتى اليوم جواز سفر يحمل اسمه!

ومن العجائب التي صعقتني فعلًا رؤية شخص (لا يمكن نسيان ملامحة أبدًا) كان يعذبني في السجن ويسخر من قصصي ويمنعني من الذهاب إلى المرافق الصحية، إذا بي أراه في طابور من الأبرياء الشرفاء الذين يطلبون اللجوء السياسي والإنساني نحو المنفى، وحين رأيته ضحكت برغم أنفي، فما كان منه غير الهروب بعد أن افتضح أمره!

سينما كبيرة هي الحياة، عجائبها لا تنتهي وغرائبها بلا حدود، وكما عرفنا في طفولتنا وصبانا شخصيات سلبت ألبابنا مثل "روبن هود" وطرزان وسبارتكوس والسندباد البحري وهرقل وزورو وعلاء الدين فقد عرفنا في سنواتنا الأخيرة بطولات تلفزيونية تظهر في جميع البرامج وتنطق بتصريحات عجيبة في كل شأن، تراها تحكي عن فواجع العراق ومأساة فلسطين ومحنة الشيشان وعن الحرب في أفغانستان كما تحكي عن رحيل اسمهان وأغاني شعبان وسباق الخيل في جزر الكناري، أبطال من ذبذبات تلفزيونية احتلت القنوات الفضائية جميعها، فهي تحكي في الدين والسياسة والجنس والمحرمات والممنوعات بالحماس الذي تحكي به عن السجائر ومضار التدخين وأفلام شامي كابور.

ولعل من الغرائب حقًا، ذاك التناقض في بعض التصريحات، إذ قال أحدهم على قناة النيل للأخبار "إن بوش لن يحارب العراق بل يعمل على

كسب أشياء خفية من وراء التهديدات التي يبثها نحو الرئيس العراقي" ثم بعد خمسة أيام يظهر على قناة الجزيرة ليقول "إن جورج بوش الابن لن يردعه رادع عن ضرب العراق حتى إذا اقتضى الأمر عدم مشاركة بريطانيا في الهجوم، ذلك أن السيناريو تمت كتابته وانتهى الأمر"!

وهذا الشخص صار البديل هذه الأيام عن بطولات الفارس المقنع، فهو يظهر أمامك فجأة ثم يختفي لتراه على قناة فضائية أخرى، تسأل نفسك عن السرعة التي انتقل فيها من رأي هنا إلى رأي مخالف هناك، ثم تتذكر أن الحياة ليست سوى (سينما) مذهلة ضخمة كبيرة الحجم وفيها كما في العروض الساخنة المثيرة القاتل والقتيل، الصادق والكاذب، القوي والضعيف، وفيها أيضًا القنوع والجشع، وفيها المتعافي والمريض، لكن نسبة القتلة والكذابين والضعفاء والجشعين والمرضى هي حصة الأسد في غابات اليوم!

ومن غرائب الحياة أيضًا، أن المبدع في الكتابة، روائيًا أو شاعرًا، إذا ما أصدر كتابًا واحدًا في باريس أو لندن أو أمريكا، سوف يصبح غنيًا فورًا إذا نجح الكتاب، ونذكر مثلًا فرانسوا ساغان التي تغيرت حياتها جذريًا بعد نجاح روايتها (صباح الخير أيها الحزن) بينما الكاتب العراقي (بوجه خاص) يزداد إفلاسًا بعد كل كتاب مهم ينشره، وسوف أعطي مثلًا على ذلك (كاتب السطور) الذي أصدر ستة كتب في القاهرة وثلاثة في دمشق وخمسة في بيروت وعشرة في العراق وخمسة في عمان ولا يملك من حطام الدنيا أكثر مما يملكه بائع التذاكر في سينما (أطلس) ببغداد!

ومسلسل الغرائب لا حدود له، فقد أقفرت بيوت الأدباء من الكتب، باعوها على أرصفة شارع المتنبي، وانتقلت إلى منازل الأثرياء من باعة الخردوات والجثث، وصارت تلك الكتب العزيزة مجرد ديكور في القصور لا أحد يقرأ ما فيها وما من أحد يقترب منها، إنها للفرجة والتباهي، حالها حال الطنافس والثريات والصحون والملاعق التي يتباهى صاحبها كيف أنه اشتراها من مونت كارلو ومن الصين الشعبية وباريس!

لقد رأيت –بنفسي– كيف صلبوا المتنبي وأدونيس وماركيز ونيكوس كازنتزاكي وهمنغواي وسهيل إدريس والبحتري وكولن ويلسن وجان بول سارتر على واجهة ذاك الديكور من الكتب الرائعة التي اشتروها بسعر التراب، رأيت عشرات المبدعين يذرفون الدموع حتى سالت كما المطر على أرض القصور الفارهة التي ذبحوهم فيها دون رحمة ولا قراءة، هرمان هسه يبكي كرياته الزجاجية، وإيزابيل الليندي تتحسر على ابنة الحظ ولا حظ لها، بينما تسمع أنين الطيب صالح ونجيب محفوظ وأوسكار وايلد وهم محصورون بين كتف طاغور وسيقان محمد الماغوط ولا أحد يسأل عنهم!

يا لها من سينما: الحياة التي نعيشها اليوم، فها هو التلفزيون يعلن عن بلاد تحيا خارج المألوف في إحدى مدن جنوب أفريقيا حيث تذهب النساء للعمل في الحقول أو المعامل أو المناجم بينما الرجل هو الذي يتزين لزوجته حين تعود بل يضع الماكياج ويطهو الطعام ويخاف من ربة البيت مع أنها لم تعد كذلك! كما أن المرأة يحق لها الزواج بمن تشاء حتى إذا

كان عدد أزواجها يزيد على أربعة، أما الأولاد مهما كثر عددهم فهم من حصة الزوج الأول فقط، أما بقية الأزواج فهم للمتعة والتباهي كما هي الكتب في بيوت أغنياء بغداد!

في الأردن رأيت مدينة (البتراء) وكانت واحدة من أعجب ما رأيت في حياتي، كيف تمكن الإنسان من حفر مدينة كاملة كلها من الصخور وهل يستطيع البشر هذه الأيام برغم التطور المذهل في الكهربائيات والصناعة والعمران بناء مدينة كهذه؟ هل يستطيع إنسان الحاضر إقامة هرم مثل خوفو؟ إنها لمسافة رهيبة بين الهدوء والصخب، بين السلام مع النفس والحرب عليها، مسافة شاسعة بين التأمل والانفلات، بين البناء والهدم، والخوف إنما يمكن من شكل الغد، من السلاح الذي تكاثر حد التخمة، من الإنسان الذي أصابه الجشع، ولا أحد يعلم كيف ستأتي ملامح الحياة بعد عام أو عشرة أعوام، لكن المؤكد فيها يشير إلى خراب في الروح وخراب في الأخلاق وخراب في الذوق وخراب في رسم خارطة الحق إلا إذا انتبه الناس مبكرًا إلى نهاية الفيلم الذي يعرض على شاشة اليوم حتى نقوم سويًا لتغيير النهاية قبل أن ننتهي معها.

وأقترح أن نسرع قبل فوات الأوان.

الحياة بعد الموت!

يقال أحيانًا عن أديب ما (إنه مات حين مات) بينما يقال عن أديب آخر (إنه عاش حين مات) والفرق كما نرى شاسع وكبير بين الاثنين.

والمسألة لا تقف عند الأدباء وحدهم، بل تمتد إلى المطرب والملحن والشاعر والنحات والموسيقار والمخرج والممثل وحتى عازف العود أو الكمان، وغيرهم من المبدعين في السينما والمسرح والصحافة والرياضة أيضًا.

وبرغم وضوح المعنى، دعونا نسأل: كم شاعر (خبص) الدنيا بإعلاناته عن نفسه، كم اشترى وكم باع من لغط ومساومات وقصائد وحوارات وشتائم إبان حياته، لكنه ما إن مضى إلى القبر حتى أغفله الناس وضاع فورًا من ذاكرة الصحافة ومن ذكريات أقرب المقربين إليه؟ وكم من مطرب هاج وماج على شاشات الدنيا، كم ارتدى من ثياب مبهرجة ومزركشة، وكم استخدم من دهونات الماكياج وكم (قلب) نفسه وانقلب عليها فوق المسارح والحانات والملاهي، لكنه ما إن حلت ساعة موته حتى راغ غير مأسوف عليه وانزوى في جزء مهمل من أشرطة الإذاعة والتلفزيون وما عاد من أحد يذكره أو يطلبه ولا مرة واحدة في "ما يطلبه المستمعون"!

صحراء غبراء، أو غابة مثمرة، عقارب مسمومة، أو نبع ماء تلك هي النفوس، يابسة لا حياة فيها، أو شلال عسل يأتي من السماء، والحياة واحدة لن تتكرر، وما عليك غير أن تختار ما بين الخير أو الشر، سعة الروح وخيرات الضمير، أو ضيق النفس وسيئات اليدين.

أعرف كاتبًا لم يعثر على شيء يتباهى به، فاستأجر حياة أقرانه ونام فيها، سرق أثاث أفكارهم وخزائن تجاربهم وعاث فيها لهوًا وفسادًا وراح ينشرها على أنها حياته وأفكاره وتجاربه.

واقتربت يومًا من حياة شاعر عاش أجمل سنوات عمره فيما يسميه بالغربة التي فرضوها عليه، كان يسرح ويمرح بين البارات والنساء والسرقات الشعرية دون أن يحاسبه النقد أو يقترب من أكذوبته النقاد، فقد استفاد من مطاحنات الأحزاب وعاش في بحبوحة من النقد المغفل، لكنه بعد موته لم يذكر إلا سهوًا!

وعندما نقول عن شاعر (إنه مات يوم موته) فهذا يعني أنه انتهى من ذاكرة القراءة ولم يعد من أحد يأتي على ذكراه وأن ما فعله طَوال حياته مع الشعر لم يكن بمستوى هذا الفن الرفيع لكن العلاقات العامة (البروبغندا) هي التي أعطته شيئًا من الحضور واللمعان أيام كان حيًا، فهناك شاعر موظف لدى السلطة وهناك شاعر موظف لدى الحزب، وهناك شاعر لا يشعر إلا بمصالحه الشخصية، وهناك شاعر مختص بالمنابر والمهرجانات وثمة شاعر مستأجر من حاكمه وسادته، وهناك شاعر يلعب

الثلاث ورقات وله دور فاعل في السمسرة وإشعال الليالي الحمراء، لكن هؤلاء جميعًا لا خلود لهم أبدًا، إنما تنتهي ذكراهم يوم وفاتهم، بينما يبقى الشاعر الحقيقي مئات السنين في وجدان القراء وفي وجدان الأرض معًا.

النماذج كثيرة، بعضها ينعش الذاكرة وبعضها يتدفق من تحت المجاري مثل البكتريا، والأديب الذي يعمل في خدمة الأخطاء مخطئ في حق نفسه وحقوق مواطنيه، إنه نفسه الملاكم الذي يضرب قرينه في المرآة، ولن يكون له من مجد في حياته غير كسر الزجاج، ومن أغرب الغرائب وأعجبها أن يستمر الشاعر في مدح الظالم وقد اكتشف ظلمه وما عاد من شيء يحجب الحقيقة أمام عينيه!

الحال نفسه مع المطرب الذي راح يغني عن مجد مزور ورجولة خرقاء ويرقص على شاشة التلفزيون بينما يموت العشرات في أقبية السجون، وكذلك مع النحات الذي جاء بإرادته إلى كسب الأموال متبرعًا بموهبته أمام جداريات يعلم جيدًا بأنها لن تدوم أو اسمه وسمعته وإبداعه سيلقى المصير الذي ينتظر المنحوت، لكن إغراء المال على ما يبدو أعمى البصيرة والبصر.

لم يعد البعض من كتابنا يفكر بما يشتهي وبما يريد ويحتاج إليه، صار يفكر بما يشتهون (هم) وما يفكرون فيه، مع أن ذلك يعني نهاية العقل وفناء الحواس، أرغموهم على بيع بضاعتهم بسعر التراب، وصارت الرواية

والقصيدة والقصة القصيرة محض مزاد علني في النهار وذرف دموع في الليل على بضاعة كانت هي أول الحضارات قبل الحجر!

هل يحدث في (باريس) مثلًا ما يحدث عندنا؟ هل سمعتم بشاعر يقرأ مدحًا في حضرة (جاك شيراك) وهل من روائي كتب عملًا عن الجنرال (ديغول) وجاء على وصفه بالطريقة التي توصف بها الآلهة والأنبياء؟ هل ثمة فيلم سينمائي خاص عن بطولات الرئيس النمساوي، وهل من أغنية عن (كورت فالدهايم) مثلًا؟

لماذا أصبح (سفح ماء الوجه) عملة عربية؟

منذ متى كان العربي يساق هكذا إلى مجزرة البيع والشراء وتحطيم الذات؟

ربما يقول البعض إن (المتنبي) فعلها من قبل، وكذلك (الجواهري) وشلة من الشعراء في أزمنة ولت، لكن هل كتب المتنبي أو الجوهري تسعًا وتسعين صفة ربانية مقدسة عن شخص واحد؟ وهل جاء بها أي شاعر في العصر العباسي أو الفترة العثمانية أو في أي زمان غابر؟!

لا نريد أن تختفي الشمس عن حضارتنا، وينبغي دائمًا أن نتذكر ضمائرنا التي نحتكم إليها ونحكم بها، وإذا كانت أجسادنا ستمضي آجلًا أو عاجلًا إلى التراب، يجب علينا الحرص على أقوالنا وكتاباتنا وإبداعنا، فهي وحدها ما يبقى بعدنا.

ليس من رجل سيبقى أبد الدهر، لكن القصائد الشريفة يمكنها أن تبقى، وكذلك القصة والرواية والرسم والموسيقى وكلمة الحق.

نريد لكم أيها المبدعون البقاء بعد موتكم، ومن المؤسف والله أن تموتوا يوم موتكم، والمسألة ببساطة لا تحتاج إلى تفسير آخر.

يأتي الحوار بما لا تشتهي السفن!

يأتي إليك (أحدهم) ويطلب منك حوارًا للنشر، فإذا اعتذرت قال عنك أشياء لا ترتضيها لنفسك، وإن وافقت يأتي الحوار على عكس ما تشتهي، كما حدث مع المبدع الكبير يوسف إدريس عندما جاء على لسانه قولًا لم يكتب في الجريدة بالشكل الصحيح، وحدث بعد ذلك ما حدث بشأن حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل، إذ ورد في الحوار "أنا الذي يستحق الجائزة وقد ذهبت سهوًا إلى محفوظ" ويقال إن الحقيقة ليست كذلك وإنما أراد يوسف إدريس القول "أنا أيضًا أستحق الجائزة لكنها ذهبت لمن يستحقها أكثر مني" وشتان بين كلام وكلام!

أما ما هو أسوأ من هذا وذاك، فهي الحوارات التي تأخذ الكثير من وقتك ثم ينساها من جاء يحاورك! والبعض منهم قد يسافر إلى آخر الدنيا (كما هو الحال في عمان) ويترك كومة من الكتب ستعثر بين أوراقها على حوارك الضائع الذي تركه خلفه بعد أن كان ملهوفًا على نشر أسرارك وأفكارك وأعمالك.

واليوم عثرت على مزق من أوراق تأكد لي أنها بعض إجاباتي على حوار قديم مرت عليه –كما يشير التاريخ المدون في أعلاه– ثلاث سنوات

وثلاثة شهور ولم يجد طريقه إلى النشر طبعًا، وتساءلت مع نفسي عن حالة كهذه وما إذا كان الشخص الذي سلب وقتك في يوم ما قد أحس بالذنب أو عاتب نفسه على (فعلته)؟

وهذا الأمر تكرر مع العشرات من الأدباء ولست وحدي من كان ضحيته، وقد رأيت أن بعض ما جاء في ذلك الحوار (المهمل) يستحق مني إعادة كتابته (باختصار) على ما فيه من أشياء تستحق القراءة، فقد سألني عن أسوار الإبداع داخل العراق وكيف تبدو الكتابة داخل الثالوث الممنوع (السياسة، الجنس، والدين)؟ يومها قلت له بأن النص الإبداعي في العراق ليس وحده من يخضع لأهواء الجنس أو شبح الدين أو قيود السياسة، فالوطن العربي برمته يعاني من ذلك كله، والدليل بالنسبة لي شخصيًا (رواية الطاطران) التي أخذت مني ثلاثة أعوام من الكتابة، أعطيتها إلى منشورات (سينا) في القاهرة ولم تنشر، ثم سلمتها إلى اتحاد الكتاب العرب بدمشق ولم تحصل الموافقة عليها، ثم اشتراها مني صاحب مكتبة المنصور العلمية في بغداد لكنه اكتشف بعد وقت قصير أن لا أحد يمكنه المغامرة بطبعها وتوزيعها، وهذه الرواية تحكي قصة رجل عراقي ذهب إلى إيطاليا وعمل في أحد مطاعم السمك في مدينة (تيريستا) ثم اشتغل حارسًا لمحل يبيع الآثار الشهيرة (المنسوخة) فتعثر عليه (كونتيسة) غنية جدًا تشتري فحولته وشبابه لإشباعها، وتلبية رغباتها، إذا به يتحول يومًا بعد يوم إلى "جيكولو" يبيع اللذة والمتعة إلى تلك السيدة الغنية الشبقة التي يزيد عمرها ثلاثين سنة على عمر الشاب العراقي، ويوم اكتشفت بأنه صار مجرد (عاهر) هرب منها إلى زوايا المجهول لا يدري

بعدها ما سيفعل؟! وهذه الرواية مزحومة بأسئلة تتعلق أصلًا بسياسة البلد التي فارقها، مع أسئلة الجنس والحرمان العرب مضيفًا عقدة الدين التي كانت هي البلوى التي تطارده كل يوم، وهذا الكلام عن رواية الطاطران يعني بالضرورة أن لا وجود لنص عربي أو عراقي –بصورة خاصة– دون شروط من الشرطة الأخلاقية وشرطة الرقابة وأن الفن القصصي (عندنا) محكوم بالموت قبل ولادته.

من المناسب التذكير بأن أعمالي المنشورة في مصر لم تصل العراق، وكذلك قصصي التي ظهرت في دمشق وبيروت، وذلك يعني (أفضل ما كتبته طَوال شبابي) فلا أحد هناك يدري أي شيء عن (موجز حياة شريف نادر) أو (الحب رميًا بالرصاص) أو (لا تسرق الوردة رجاءً) أو (لا عشاء بعد الليلة) إلا إذا أهديته بنفسي، وهذه الكتب منعوها تمامًا لأنها تحكي في السياسة التي لا تناسب سياستهم، وتشتكي إلى الدين الذي لا يترعون إليه، كما إنها تشاكس فكرة الجنس الذي يرغبون به (دون ريب)!

أرى اليوم أن النص العراقي لا يخضع لثلاثة شروط فقط، بل يضع لمزاج (عائلي) ريفي متخلف لا يفهم من الحضارة سوى أنها (تماثيل) من حجر وطين!

ومن بين الأسئلة التي تسلقت ذاكرتي على جانب من ذاك الحوار الضائع (أن الإبداع ليس سوى طريقة نتعامل بها مع تلك القيود) بحسب قول

الشاعر ت.س. إليوت، والسؤال هو: أتذكر كم كنت مراوغًا تعرف كيف تزوغ من تلك القيود وتراوغ المؤسسة الرسمية (دون أن تفلت من عقابها) فهل حان وقت الإفلات أم لا يزال هناك من يمسك بها؟ وأعرف أن ما يقوله (إليوت) لا يشمل العراق، إذ أنه لو عاش أسبوعًا واحدًا فقط تحت قيود الديكتاتورية لضحك من نفسه ومن أقواله –هكذا بدأت جوابي– وسوف يرى السيد إليوت كم هو بعيد عن المسالخ والمجازر والقتل العشوائي وهتك العقل والأعراض، ومن ثم سيكتشف هذا الشاعر الكبير (أن الإبداع ليس إلغاء للقيود بقدر ما هو طريقة يمكنك التعامل عبرها مع مثل تلك القيود) كما يقول هو نفسه، لكنه مع بلد سوريالي مثل العراق سيتوقف قليلًا ليحاسب نفسه كثيرًا على مدى أهمية الأقوال (الجاهزة) موازاة اللامعقول الذي يحدث بعيدًا عن منطقة نفوذه الشعري والسياسي أيضًا!

حسنًا، لنقل: إنني كنت ذاك المشاكس أو المراوغ الشاطر مع (المؤسسة الرسمية) فماذا جنيت من مشاكساتي عبر عشرات السنين؟ إنني مثل سواي، مقيد اليدين ومقيد العقل والإحساس، حتى وأنا خارج وطني اليوم أشعر بهم خلفي يتربصون خطاي، ذلك إنهم يمسكون بك ثم يمسكون بماضيك ويرسون مستقبلك بالطريقة التي يرتأون، وإذا ما هربت منهم فما عليك سوى الاستعانة بمن هم أكبر منهم، والمشكلة أن لا أحد في هذا الزمان أكبر ثمنًا من النفط، وهم يملكونه منذ سنين، لذلك قتلوا الثقافة والفكر والإبداع والأدب والفن والإنسانية من أجل عيون النفط!

أظنني على خطأ جسيم بشأن مشاكساتي ومراوغاتي، إذ ليس بوسع أديب أو شاعر أن يفعل أي شيء موازاة (خصخصة) الأموال من المؤسسات العامة إلى الأفراد أو الشركات الخاصة، فقد صار العالم كله ملكًا لمن يملك أكثر، ونحن الأدباء لا نملك أي شيء سوى الكلام!

ذاك الحوار التائه بين شعاب الكتب التي عافها عند هجرته كان قد احتوى على أكثر من عشرة أسئلة، وكل سؤال احتوى بدوره على أكثر من أربعين سطرًا، وكل سطر منها جاءت فيه ثلاث أو أربع عشرة كلمة، وهذا يعني أنني كتبتُ له ما يقرب من ستة آلاف كلمة، فهل يحق لمن حاورني أن يشطب كل ما جاء من أجله وما أرغمته (أنا) عليه؟

واليوم، إذا ما جاءني (أحدهم) واعتذرتُ عن أي حوار لاحق، فهل ترى يشفع لي ما كتبته لكم الآن؟ أم أنني سوف أسمع منه ما ليس يرضيني؟ دعونا نسأل (علوان حسين) الذي رحل عنا صوب أمريكا بعد أن ترك الحوار في رواية (صورة دوريان غراي)!

جريمة قتل الكتاب!

قد نسمع بالتطورات العلمية ونزداد سعادة بما وصل إليه الإنسان من علو في مضمار الفضاء وعلى سعة الأرض التي تم تقليصها بواسطة الاتصالات؛ تليفون خلوي، فاكس، إنترنت، تليفزيون، حتى أوشكت أن تصبح قرية يسهل التنقل بين شعابها مهما ابتعدت أو طالت المسافة.

هذا أمر لا نقاش فيه، مع اعتراض خجول نقوله على استحياء مرة وقد نبسطه أمام الجميع مرة، بحسب الجرأة والشجاعة التي يملكها كل واحد منا، وهي أن العلوم لها سلبياتها مهما بلغت رفعتها لاسيما إذا تذكرنا جرائم الإنترنت وأمراض الموبايل إلى جانب التصنيع العسكري الذي يندرج بدوره تحت يافطة العلوم.

بينما الفوائد في عالم الأدب والكتابة عمومًا لا سلبيات ولا حروب فيها، إنه في خدمة الإنسان وزيادة وعيه ومعلوماته وثقافته، وهو البناء التحتي لهذا الكائن الذي لا يزال بحاجة إلى الأمان والسلام والطمأنينة والفرح، وهو ما لا تحققه العلوم عادة إذا ما تذكرنا حالة الفوضى في عالمنا المعاصر، حتى ليبدو الناس في الشوارع كما المجانين مع هواتفهم النقالة، وهم كذلك أيضًا أمام شاشات الإنترنت التي يطول المقام أمامها أكثر من عشر ساعات في اليوم الواحد أحيانًا!

ما زلت عند رأيي أن صدور رواية محترمة أو مجلة أدبية تعني بشؤون الفكر والترجمة والإبداع إنما يوازي بعض مخترعاتنا العلمية في مجال الاتصالات واكتشاف المضادات الحيوية التي يحتاجها المريض، ذلك أن الإبداع عمومًا هو علاج آخر للعقل والعاطفة لا يقل أهمية عن مداواة المرضى أو المدمنين على الأخطاء والجرائم.

ومن هنا أرى في (دار الآداب) واحدة من أكبر المستشفيات الأدبية التي عالجت القارئ العربي على امتداد ما يقرب من خمسين سنة، كما أرى في (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) واحدة من المنتجعات الممتازة برغم أنها لا تطل على بحر الأدرياتيك ولا تمر بنهر الدانوب العظيم، والكلام نفسه سيقال في (دار الجمل) التي يشرف عليها شخص واحد هو الشاهر العراقي خالد المعالي وكذلك منشورات (رياض الريس) وغيرها من شركات الفكر العربي ومؤسسات الكتابة ووزارات الثقافة أيضًا.

نحن بحاجة حقيقية لمزيد من المجلات الأدبية الثقافية المختصة، فهي وحدها التي تثير الرغبة في الكتابة والاتصال ببقية أدباء الوطن العربي لأن وصولها أسهل من الرواية وديوان الشعر، كما أنها –دون أن ندري– إنما تحقق بعض ما نحتاج إليه من الوحدة العربية التي صارت مجرد حلم أبعد من أية مجرة في الكون!

أقول هذا الكلام بمناسبة صدور أكثر من مجلة أدبية في عالمنا العربي، لعل أولها (ثقافات) التي تصدر في البحرين منذ شهرين، تضاف إليها (فصول)

بشكلها الجديد وهيئة تحريرها بدماء شابة متحدة مع جيل المخضرمين، إلى جانب المجلات الأدبية المهمة، وعلى رأسها مجلة (أبواب) التي أكملت السنة الثامنة على تأسيس فكرتها، ومجلة (الموقف الأدبي) لسان حال اتحاد الكتاب العرب مع شقيقتها مجلة (الكاتب العربي) ومجلة (المسلة) التي يتبناها اتحاد الأدباء والصحفيين العراقيين في المنفى، وعودة مجلة (الرصيف) بعد غياب دام أكثر من عشرين سنة، ناهيك عن المجلات التي صار صدورها أكثر دقة من ساعة (بغ بن) مثل مجلة (الفيصل) و(المعرفة) و(الأفلام) و(الرافد) و(البحرين الثقافية) و(العربي) وعشرات غيرها، تساهم كلها في رفد حياتنا الإبداعية وتحكي قصة الأدب العربي المعاصر.

وبرغم هذا الكم الذي يبدو كبيرًا عند أول نظرة، لكنه قليل جدًا عند أية مقارنة بما يصدر في أي بلد أوروبي، حتى أننا متهمون بالأمية لأننا لا نطبع من الكتاب الواحد سوى ألف نسخة ومن المجلة ليس أكثر من ثلاثة آلاف نسخة وهي نسبة مضحكة فعلًا إذا ما عرفنا أن بعض الدول تطبع أكثر من ربع مليون نسخة للرواية أو المذكرات أو الكتب العلمية التي تبحث عن المستقبل وتطور التكنولوجيا الذي صار هاجس الصغار قبل الكبار وصار مزيجًا من المتعة والكابوس معًا!

قد لا يصدق البعض، أن الأدب أكثر خلودًا من العلوم ومن الحروب مهما بلغت قسوتها ومهما كان حجم الدمار فيها، وخير مثال على ذلك بقاء رواية (الدون كيخوتة) في ذاكرة الأسبان والعالم فترة تزيد على

ذكريات الشعوب عن أية حرب عاشتها البشرية، والكلام نفسه سيقال عن (ألف ليلة وليلة) وقصائد المتنبي الكبير.

وستبقى الإنسانية بحاجة ماسة إلى الكتاب المطبوع مهما تقدمت البشرية في علومها، صحيح أن نسبة القراء تنخفض يومًا بعد يوم بسبب الانحياز إلى عالم الإنترنت، لكن سرعان ما يصحو الكثير منهم إلى قيمة الكتاب المقروء بين اليدين والذي تحتفظ به في مكتبتك الخاصة دون أن تنسى غلافه الأول الذي ينغرس في قلب الذاكرة سنة بعد أخرى.

لا أريد الانحياز إلى الآداب، مع أنني أبدو كذلك حتمًا، لكنني أريد الانتباه إلى حجم الخسائر التي يعاني منها الأدب موازاة زحف العلوم إلى أبسط اهتماماتنا وأجمل ما نملكه من أشياء عزيزة وأولها الكتاب الذي كان خير جليس في الزمان.

قبل أيام جاءنا صديق عراقي يقيم في (أستراليا) وهو كاتب قصة قصيرة، فوجئت بأنه لا يقرأ، ولم يمسك كتابًا أو مجلة بين يديه، مضت الشهور وهو على حالته تلك، حتى اكتشفت أن جميع احتياجاته في القراءة والمعلومات تتم عن طريق الإنترنت، لقد فقد الإحساس ربما بالكتاب والصفحات ورؤية الطباعة التي تشير إلى جماليات هذا الكائن الرائع الذي يسمى الكتاب، بل شعرت به وهو يمارس طقوسًا رفضت أن تكون لي ذات يوم، فأنا على وفاق مع الكتاب المطبوع وهو صديقي في الليل وما بعد الليل من سهر وترقب وغوص جميل ما بين الأوراق.

وسأعترف أن الأمر أغاظني وأخافني في الوقت نفسه، فهذا الكتاب كان ولا يزال طوق نجاة عظيم من الجهل والكآبة، فكيف يمكن تعويضه على شاشة صغيرة تمشي أمامك مثل الأفعى؟ وأتساءل تلقائيًا عن شكل المستقبل، هل سيأتي اليوم الذي نرى فيه الناس وهي تحمل أجهزة الرصد في العربات وفي القطارات وهي تقرأ رواية (موبي ديك) مثلًا؟

يقول صديقي الذي جاء من مدينة (سيدني) إن الذي يسمع كلامك سيقول (كم أنت متخلف عن الركب) فهذا ما يحدث الآن فعلًا، ويمكنك أن تحصل على موقع نجيب محفوظ مثلًا تقرأ جميع أعماله على الشاشة، والأمر نفسه يتكرر مع مئات الأدباء والشعراء والروائيين الكبار في العالم!

في تلك اللحظة، نظرت إلى الكتب التي أمامي، مددت أصابعي إليها أتفحص أوراقها وأرى أغلفتها الجميلة، وتلك كانت أول مرة في حياتي لم أعترض فيها على كلمة (متخلف) بل رأيتني أوافق عليها ما دامت تعني بالنسبة لي أن الكتاب المطبوع سيبقى صديقي حتى مماتي.

قبل فوات الأوان!

الخسارات في عالم الأدب أكثر منها في عالم الفن والرياضة، بل توشك الكتابة أن تسقط بالضربة القاضية أمام المسرح التجاري وأمام الغناء الشبابي وأمام كرة القدم.

صحيح أن المقارنة بين الإبداع الروائي والفكري، وبين الرياضة والغناء وبقية الملاهي، هو أمر خارج المعقول، لكنه يعطي فكرة عما وصلنا إليه من جفاف في الثقافة وانكسارات في الأدب وخسائر كبرى في المعرفة والتاريخ والعلوم.

والخسارات كما الوحش، تفتك بقوة وتغرز أنيابها إلى أعمق ما فينا من لحم وعظام ودم، وليس من عدالة في عالم اليوم، إذ كيف نفسر نحن العرب بخاصة حصول لاعب كرة قدم على مليون دولار مقابل طلاء شعر رأسه بدهونات تعود إلى شركة (ما) لا نريد ذكر اسمها لئلا نساهم في الإعلان لمستحضراتها!

والعالم مهما بلغت عدالته ليس عادلًا، وهذه حقيقة لا نقاش عليها، فما نراه كل يوم على شاشة الفضائيات إنما يرغمك على اليأس والتذمر والقنوط، وقد يصل بك إلى حالة من حالات الانفجار.

أين الثقافة في عالم اليوم؟ أين سلطة الإبداع؟ أين برامج الأدب وما هي نسبتها بين المسلسلات الساخرة وأفلام إسماعيل ياسين؟

أرجع نحو الوراء بكثير من الدهشة والمحبة وأنا أتذكر عباقرة الكتابة، شموع الدنيا وملح طعامها، هنري ترويا، استيفان زفايك، أوسكار وايلد، طه حسين، رومان رولان، مارك توين، هنري ميللر، دوستويفسكي، ومئات غيرهم، أحسدهم على أن التلفزيون لم يصل إلى غرف نومهم ولم تسقط الإعلانات المزعجة على نقاط كتاباتهم أو فوارز أفكارهم ولم تتمكن أية قوة من كسر عزلتهم في كهوف الإبداع!

لم يكن التليفزيون قد دخل البيوت عندما كتب (جورج أورويل) روايته المأساوية الموجعة (**1984**) ولم يكن قد تفشى بعد في خواطرنا هذا الشبح اللعين عندما كتب (همنغواي) متعة أيامه وأحلاها في (وداعًا للسلاح) وكذلك الحال عندما نتذكر المبدع الكبير (ألبير كامو) و(أناتول فرانس) و(هنري برغسون) و(توفيق الحكيم) و(هيرمان هسه).

أجل، وما من شك في أن الخسارات في عالم الإبداع أكثر منها في عالم الرياضة والفن، وأكثر ما يفزعني في زمن الفضائيات، هو أن الناس ما عادت تقرأ كما كانت تقرأ في الأربعينيات والخمسينيات وحتى هبوط (راغب علامة) كعلامة أولى على إعدام الإحساس بطعم النسمة أو رحيق المانجو أو مذاق القهوة أو شم التفاح، وإذا كان (أحمد عدوية) مثالًا صارخًا لبؤس الذوق، فماذا سنقول عن شعبان عبد الرحيم؟!

أين الجواهري على شاشة التليفزيون؟ أين سعدي يوسف وأدونيس وأمل دنقل ومحمد خضير وزكريا تامر وعبد الرحمن منيف؟ لا أحد نراه على تلك الشاشة المسحورة غير (عمرو دياب) و(فيفي عبده) و(نجوى فؤاد).

فكم هو حجم الخسائر في الثقافة والفكر والفلسفة وعلم الجمال، كم هو حجم الخسائر في الرواية والقصيدة والنحت والقصة القصيرة؟

يفزعني أن الناس في بلادنا ما عادت تقرأ، نسبة من يقرأون لا تتجاوز الواحد من كل ثلاثمائة شخص، بحسب إحصائية جرت عام **1995** وأظنها لم تعد كذلك بعد هذه السنوات السبع، فقد جرف التليفون الخلوي والإنترنت والحاسوب البقية الباقية من حماس الناس للقراءة، أما كابوس التليفزيون فقد أخذ حصة الأسد من اهتمامات الناس ولا سيما النساء على وجه الدقة.

لو مرة واحدة تمكن أي شخص في أي مكان من إغلاق التلفزيون ساعة أو ساعتين، وحاول أن يقرأ ميخائيل شولو خوف أو إيزابيل الليندي أو يوسف إدريس أو نجيب محفوظ، ساعة واحدة أو ساعتين، ربما سيغلق شاشة البلاوي لمدة أطول ثم أطول يومًا بعد يوم!

كل واحد منا يكبر بنجاحه، وأعني بذكائه طبعًا، وبعض الناس تكبر بغباء الآخرين، وما دامت القراءة هي منجم البدايات ومنهل العطايا للعقول، لماذا لا نقرأ؟

ماذا تفعل مدارسنا؟ ماذا يقول معلم اليوم لتلامذته؟ وإذا كان أستاذ اللغة العربية وأستاذ الوطنيات لا يدري أي شيء عن بدر شاكر السياب ولم يسمع بجان بول سارتر ولم يقرأ طه حسين أو غوستاف فلوبير ولا شأن له بالقصة القصيرة أو الشعر أو الموسيقى أو المسرح، فأي جيل سنرى وأي مستقبل ينتظر أولادنا؟!

معلم اليوم يتقصى معلوماته من التليفزيون، ويفهم معنى الكلمات من الشاشة، وإذا أخطأ التليفزيون في تفسير معنى (العولمة) أخطأ المعلم أيضًا، هكذا الحال في الصومال وبغداد، ونفسه في جيبوتي وعمان، هكذا صار حال التعليم في الجزائر والكويت، وربما ترى المعلم نفسه في الرياض والقاهرة وبيروت والمغرب العربي، وإنني أراهن على أن مئات المعلمين في مدارسنا الأساس لا أحد منهم يعرف الطيب صالح ولا يحيى حقي ولا غائب طعمة فرمان ولا كلود سيمنون ولا غارسيا ماركيز ولا سعد البزاز ولا أنطوان تشيخوف العظيم!

وعندما أقول: إن العالم اليوم غير عادل أبدًا، سأحتاج حتمًا إلى دليل، وهو حق طبيعي لمن يسأل، حسنًا، سأعطيكم أرقامًا أنا مسؤول عنها وعن أصحابها وعن العجائب التي تنسحب على حياتنا بسببها، وسوف نرى ما تفعله تلك الأرقام الكونية في نفوسنا.

ينتقل لاعب كرة قدم من فريق إلى فريق مقابل اثنين وسبعين مليون دولار، ويحصل مطرب على نصف مليون دولار لقاء إعلان لا يستغرق

(25) ثانية فقط، إلى جانب إعلان عن الكوكاكولا أخذت عنه إحداهن مبلغ نصف مليون أيضًا، بينما يتسلم كبار مبدعينا العرب –الكبار فقط– على مئة دولار أو أقل إذا ما نشر قصيدة محترمة أو قصة قصيرة ذات قيمة عليا!

فأية خسارة كبرى يعيشها المفكر والمبدع والشاعر في عالم اليوم؟ ها هي أفضل مجلاتنا الثقافية (الآداب) توشك أن تغلق أبوابها بسبب حاجتها إلى التمويل مع أن صاروخًا واحدًا من تلك الصواريخ التي نطلقها في حروبنا الخاسرة يكفي لتمويل المجلات والصحف العربية كلها!

ثمة شعور عارم "أن البراءة في الإنسان تتشظى يومًا بعد يوم وأنه برغم المساحيق التي تغسل أكثر بياضًا، إلا أن العالم يتسخ من الداخل أكثر فأكثر".

بيانات أدبية هاجرت!

جاءتنا فترات من الزمن، كنا فيها نقرأ الكثير من البيانات الأدبية والتجمعات الشعرية، كما هو الحال مع مجموعة الشعراء الأربعة "خزعل الماجدي، سلام كاظم، زاهر الحيزاني، فاروق يوسف"، قبلهم البيان الشعري الذي كتبه فاضل العزاوي وشاركه التوقيع عليه سامي مهدي وفوزي كريم وخالد علي مصطفى، ثم البيانات القصصية التي حاولت إثارة الزوابع في فنجان الإبداع .

ثم انكمشت وضاعت تحت رياح الأصالة، وثمة المزيد من البيانات في المسرح والفن التشكيلي مات أصحابها تحت وابل السياسة والتغيرات العجائبية التي مرت على البلاد وعافتها محض خراب تنعق الغربان فيه ليل نهار بعد أن هاجر مبدعونا إلى أقاصي المنافي وصار المهجر هو عنوان الإبداع العراقي بعد حفنة من الحروب والمذابح والموت البطيء الذي مشى في نزهة يومية إلى أعناقنا.

لا أظنني اليوم بحاجة إلى الرجوع نحو أفكار "جون فليتشر" حتى أتهيأ لبيانات أخرى قد تنهمر علينا غدًا أو بعد عام واحد، فقد انتهى زمن السلام مع النفس وما عاد من أحد يهمه أن يثير الزوابع بكتابة بيان عن القصة القصيرة أو العزف على الغيتار أو كتابة النوتة من اليمين إلى

اليسار ولن يأتي من يكرر الدعوة إلى السوريالية أو يحن إلى عالم "أندرية برتيون" أو مدرسة الغضب، ذلك أن البيانات تأتي في وقت صحي لا أمراض فيه، هو الوقت الذي لا يمكن للسياسة أن تأكله!

لكن البيانات ما زالت تنهمر علينا، ولكن على استحياء كبير، تأتي مرة على شكل حوار في مجلة، ومرة عن طريق استغلال الحداثة ومعاداة السلفية، ومرة على هيئة تصريح استفزازي وقح من نمط "أنا أول من كتب الحنتش بنتش" أو "أنا الذي علم الجيل التمرد وهتك أسرار التفعيلة" إلى آخر البيانات التي تأتي من طرف واحد لا شراكة فيه.

الفن –في مفهوم بول ويست– هو مجموعة حالات من التوتر والاقتحام والتشويه، لكن التصريحات التي تتفاقم منذ حين على صفحات الجرائد والمجلات لم تلتفت إلى الاقتحام والتوتر، بل ذهبت فورًا إلى تشويه الحقائق واكتفت بالجزء الثالث من مفهوم الفن، وفيما يتعلق اليوم بالقصة القصيرة –كمثال– اكتفى بعضهم بإقحام الأسطورة حتى قبل استيعاب ما جاءت به الحكاية الأولى في زمانها المندثر البعيد، وصار بعض الكتاب يجمع ما هو (مسموع) ويلصقه على قصصه دون أن يفكر مرة واحدة أن المنقول الشفاهي ليس بالضرورة هو ما جاءت به تلك الأسطورة التي نثرها على أبطاله أو رماها فوق فضاءات قصته الأخيرة، المهم أنهم سيقولون (عنه) ما يقال عادة في أقرانه: كاتب مبدع أجاد في أسطرة الواقع!

إنهم يقطعون المسافة بسرعة، غافلين عن حقيقة أساس لا يمكن قطعها إلى نصفين، هي أن القصة (إبداع) قبل أن تكون (ثقافة)، وأن القصة القصيرة (فن) قبل أن تكون فلسفة، أن القصة منذ همنغواي إلى غارسيا ماركيز هي انغماس في الدهشة والحلم والمتعة معًا، وليست جبلًا من المعلومات المستلة من كتب وتجارب سابقة.

لكن البيانات التي طلعت علينا، منذ السبعينيات وحتى يومنا هذا، إنما تحكي عن قصة لا نعرفها، وعن معرفة لا نحكي عنها، كلمات رنانة جميلة، عن حقب زمنية مرت قبل مئات السنين، عن تاريخ مزحوم بالمخيلة الشفاهية التي نقلتها "الجدة" الطيبة الحنون، وكل هذا رائع مهم ومؤثر إذا كنا بمستوى إعادته، لكن بعض كتابنا دفعونا عنوة إلى شمال الحكاية بينما يقول زمانها إنها في الجنوب، ومرغ حلاوتها في مرافئ الغرب بينما ولدت بالأصل على غرين الشرق، وهكذا الحال مع بعض الشعر الذي يلبس ثياب الأسطورة، ما إن تنتهي القصيدة حتى تسأل نفسك عن سر هذا الركام من المفردات التي تنتمي إلى العصور كلها إلا عصرك أنت؟ فماذا جرى في إبداعنا على وجه الدقة؟!

كثيرة –في هذه الكتابات الأسطورية– هي المدن التي اكتشفوها مرة ثانية، وصار لها من خيراتهم أبواب وسراديب وكنوز لم يكشف النقاب عنها إلا عن طريق معاولهم وأزاميلهم، وكثيرة هي الشخصيات التي أيقظوها من مقابرها بعد آلاف السنين وأعطوها من شهيقهم حياة أخرى

لرؤية الحاضر الذي أعادوا إعماره "بشق الأنفس" وصار يسمى (حضارتهم) الجديدة!

القصة القصيرة قبل كل شيء، وكما يدل اسمها عليها، قصة قصيرة، وذلك يعني أن للحكاية نصيبًا فيها، وهذا ما فعله أعظم كتاب القرن العشرين؛ كافكا، مورافيا، يوسف إدريس، كونديرا، هرمان هسة، بوتزاتي، موريس بوسن، غونتراغراس، راي براد بري، فاسكو براتوليني، فرناندو سابينو، ماريا ريمارك، وعشرات غيرهم، وهؤلاء جميعًا من خيرة كتاب القصة والرواية في العالم، لا يمكن أن تعثر في نتاجهم على هذا (الورم) السرطاني الذي أخذ من عظام القصة القصيرة أعظم ما فيها من لحم ودم وأعصاب وتركها أكثر جفافًا من مومياء!

وها هم كتابنا في العراق والوطن العربي، وعلى غفلة من وجع يغمر القلب ومن دون إحساس أو امتنان لتاريخ الفن القصصي تراهم يشطبون بأفواههم مرة وبتصريحاتهم العرجاء مرة على أفضل كتابنا، ساخرين من قنديل البحر الذي جاء بهم إلى بر الأمان، يخلعون حديد السكة التي قطعت بهم الشوط إلى محطة القيمة والإبداع يمزقون الكلام الذي سرقوه من أمهات الكتب، ذاك العطاء الذي أعطاهم اسمًا ومكانة بين المخدوعين بهم، إنهم يقطعون الهواء عن الرئة النظيفة التي أعطتهم الشهيق صوب الحياة، وفوق كل ذلك يتنكرون لأساتذتهم من دون رعشة ارتباك أو لمحة اعتذار في ملامحهم، فقد صار الحقد والإثارة والمرض هو الموج الذي يركبون، وهو نفسه –كما سنرى– البحر الذي سيطيح بهم نحو القاع!

يتساءل "جوايف كونراد" قائلًا: كم أعطيتم للنص مما تملكون أنتم؟

كم هو حجم الفائض مما سرقتم؟ وكيف يكون النص إبداعًا إذا ما اعتمد في أساسه على ما ليس منكم؟

وربما تسمع الجواب "إن للتاريخ والأساطير حقًا علينا، ننهل منها ومنه أولًا ثم نعطيهما من خيراتنا بالقدر الذي أعطونا".

وهو جواب (مقنع) بالذكاء ما إن ترفع القناع حتى تكتشف الخديعة عارية أمام العيون، وهي أنهم ما عادوا يملكون من الخيلة ولا من الكشف ولا من الإبداع إلا بقية "صنعة" سفحوها يوم انزلق بهم الوهم إلى درب شائك وهم حفاة، يوم اقترفوا الحرب على الحقائق والنصوص كلها وهم عراة إلا من ثياب الإمبراطورية الذي لا يملك الجرأة على كشف زيفها غير ذاك المبدع البريء الذي لا يعرف النفاق ولا الدجل ولا التزوير في أوراق الإبداع.

أعتقد في نهاية السطور أن البيانات السياسية سرقت وربما أكلت بيانات الأدب، وأظنها تقوم بعملية اجترار ما أكلته، ولا فائدة من الكلام.

إهداءات الكتب

سألني عن كمية الكتب التي صارت بحوزتي، فقلت إنها لا تزيد على أربعين كتابًا، فقال وقد استغرب الأمر (لكنك أحوج الناس إلى المزيد منها) فقلت له:

– إنني أحتفظ بها في ذاكرتي، ذلك أن الكتب كما تعلم هي أثقل ما ننقله معنا من سكن هنا إلى بيت هناك وفي الغربة التي مضى عليها ثلاثة أعوام انتقلت أكثر من عشر مرات بين شعاب العاصمة "عمان" وفروعها وشوارعها الخلفية، ثم إنني أقرأ الكتاب وقد أكتب عنه، وبعدها أعطيه لمن يحتاج إليه، وأرجوك أن تتذكر بأنني أيام كنت في وطني كانت عندي مكتبة عامرة يزيد عدد الكتب التي فيها عما يملكه "ماجد السامرائي" وهو المهووس بجمعها منذ كان في بطن أمه.

وهذا الموضوع أعادني إلى حكاية جمع الكتب واقتناء النادر منها، بل تذكرت فورًا ذاك التاجر الذي يعمل في الخردوات كيف أنه اشترى مني جميع مجلدات "دوستويفسكي" وكافة أعمال "غارسيا ماركيز" و"عبد الرحمن منيف" وموسوعة المعرفة إلى جانب روايات همنغواي وألبير كامي ووليم فوكنر وألبرتو مورافيا، وكنت مذهولًا أمام هذا الرجل الذي اشترى أكثر من مائة كتاب في ساعة واحدة، وحين مضيت في زيارة إلى بيته الكبير ورأيت أمّات الكتب تملأ رفوف صالة الضيوف، أيقنت بعد

وقت قصير أن تاجر الخردوات هذا لم يقرأ أي كتاب مما يشتريه، بل كانت مجرد ديكور للزينة والتباهي!

وقبل أيام أهداني أحد الشعراء ديوانه الثالث، وعندما رأيته وقد أوشك على كتابة الإهداء، قلت له (أرجو أن تعرف بأنني سأقرأ الديوان كاملًا لكنني لن أحتفظ به) وحكيت له أسباب ذلك طبعًا، ثم قرأت القصائد فعلًا وكتبت عنها مقالة في (الزمان) وبعدها أعطيت الكتاب إلى زميل آخر بعد أن رفعت الإهداء واحتفظت به في أرشيف خاص.

فوجئت بالكتب المهداة إليّ والتي أهديتها إلى من يستحق التمتع بما جاء فيها، ثلاثة أعوام كانت الحصيلة فيها ستمائة كتاب لو أنني احتفظت بها حتى اليوم لما تمكنت من البحث عن سكن أفضل أو مكان قريب من الجريدة التي أكتب فيها.

فهل ينبغي الاعتذار من مؤلفيها؛ لا أظن ذلك، فها أنا أقرأ ما كتبوه لي على أول صفحة من كل كتاب جاءني هدية منهم، فهذا يقول "من خراب الروح إلى خراب البصرة نواصل نشيجنا المر ونشيدنا العالي ضد البرابرة خفافيش الظلام الذين سرقوا الوطن وبهاء الروح وخضرة الأمل وأحلام الحياة وفرح الكتب والأصدقاء، أحييك من أقصى الأرض أيتها الروح البيضاء"، والثاني كتب لي "أضع دموع جنائز قلبي بين يديك، لأنني طالما توضأت بدموع أبطالك"، في حين يقول الثالث "هذه سيرة رجل كان من الممكن أن يكون جلادًا أو محاربًا فاسدًا لكنه اعتصم داخل

براءته في زمن لا ينتج إلا الوشاية والكذب والكوليرا"، وسأكتفي بما ذهب إليه الرابع إذ يقول "يا أخي وصاحبي الذي يقاسمني حراسة غابة الإبداع والمحبة والجنون، أهديك طواويس خرابنا الجميل".

نعم، أنا أحتفظ بإهداءاتهم في أرشيف أعتز به كثيرًا، أما عن الكتب فهي تجلس في شرايين رأسي ولن تفارقني أبدًا، ذلك أن المهم هو أن نقرأ ما يصل إلينا وبعدها ينتقل الكتاب من بيت إلى بيت، ومن قارئ إلى قارئ، وهكذا يطول العمر بكتاب كهذا، أما أن نبقيه في مكتباتنا على مدى السنين فقد حكمنا عليه بالموت.

في بغداد، اشتريت كتابًا عنوانه (اعترافات مالك بن الريب) وكان من تأليف الشاعر يوسف الصائغ، أهداه إلى المرحوم كامل الدباغ الذي اشتهر ببرنامجه "العلم للجميع" ولما عرف الصائغ بما فعل الدباغ أزعجه الأمر كثيرًا، وقال بالحرف الواحد "لو أنه مزق الإهداء فقط" بينما قال كامل الدباغ أن لا علم له بأمر هذا الكتاب أبدًا وإنه من النوع الذي يحترم إهداءات الكتب وإنه لا يدري كيف جرى ما جرى وكيف وصل هذا الكتاب إلى "شارع المتنبي"؟!

وإذا بنا نكتشف بعد حين (كاتبًا) من نوع غريب، لم نألف هذا النوع من ذي قبل، فهو يحتفظ بالكتب مع إهداءات مؤلفيها، ويشتري منك الكتاب بأي ثمن إذا أبقيت الإهداء عليه، وبعد حين من الدهر قام هذا الكاتب –وهو أديب في الوقت نفسه وكاتب نصوص مسرحية جيدة–

بالإعلان عن معرض للكتب مع إهداءات المؤلفين عليها، وكانت بحق فرصة نادرة جدًا، إذ رأينا عشرات الكتب القديمة لمبدعين ماتوا من زمن بعيد أو قريب ومبدعين ما زالوا على قيد الحياة وقد كتبوا أجمل الإهداءات إلى أصدقاء لهم أرغمتهم ظروفهم على بيع الكتب بعد حرب الخليج الثانية ومضوا بعدها إلى الغربة والمنافي.

من بين تلك الإهداءات عثرنا على ديوان بدر شاكر السياب مهدي بخط يده إلى القاص عبد الملك نوري، وإهداء من على الوردي إلى سيدة فاضلة باعت كل أملاكها ورحلت إلى أرض الله البعيدة، مع إهداءات نادرة فعلًا لا أدري كيف حصل عليها صديقنا الأديب –التاجر أحمد الصالح– من بينها كتب لنجيب محفوظ، ومحمود درويش، ومؤنس الرزاز، وغسان كنفاني، وميخائيل نعيمة، وغادة السمان، وبلند الحيدري، وفوزي كريم، وعبد الرزاق عبد الواحد، وفؤاد تكرلي، وجمعة اللاّمي وغيرهم العشرات.

أما أعجب ما حصل عليه في ذاك المعرض العجائبي المختصر على أقرانه وقلة من القراء وجمهرة من المبدعين فهو إهداء "نادر جدًا" بقلم رئيس وزراء العراق "نوري السعيد" وقد أهدى كتابًا عن القانون الدولي إلى وزير العدل آنذاك جاء فيه كما أتذكر "إلى السيد فلان الفلاني.. ولا بأس أن نتعلم منهم، وهذا الكتاب مدرسة، فسيروا وعين الله ترعاكم"!

الإهداء قد يمر في ساعتها مرور الكرام، لكنه يعني الكثير من المعاني، ولهذا السبب تراني أحتفظ بإهداءات الأحبة من الأدباء والشعراء في أرشيف لا يفارقني أينما وليت وجهي، ودعوني أخبركم بأجمل إهداء جاءني منذ أيام قليلة، إذا يقول علي السوداني على الصفحة رقم واحد من كتابه (ما تيسر له):

– "قل لزوجتك بأننا سنشرب الليلة في حانة (أبي أحمد) وسط البلد، محروسين بالسيدة المصون مارلين مونرو، قل لها بأننا نسكر فرحًا (على عناد أمريكا) وإذا وصلنا الثمالة سوف ننتصر على أنفسنا ونقول (يا محلى النصر بعون الله) وهذا كل ما يتسر لي يا صديقي" وأكتفي بما قاله السوداني عن بياض سريرته.

الشكوى لغير الله...!

لم يكن غير عامل طين أجرته نصف دينار، يشتغل من السابعة صباحًا حتى الثالثة ظهرًا، وكنا لا نراه إلا أيام الجمعة ونشعر بالحزن عليه، وإذا ما سأله أي واحد منا عن أحواله يقول: إن الشكوى لغير الله مذلة.

وبعد أيام وشهور صار (أُسطة) فارتفعت أجرته إلى دينارين، واحتفالًا بما وصل إليه أخذناه إلى سهرة محترمة في حانة (غاردينيا) على نهر دجلة، وكم شعر بالسعادة ليلتها حتى أوشك أن يبكي فرحًا، وبين كلام وكلام سألناه عن أحواله وماذا سيفعل بعد هذا التغيير الذي مر به، فقال: (إن الشكوى لغير الله مذلة).

واحترمنا رغبته في الصمت والكتمان، ثم فوجئنا بانتقاله إلى حرفة لا شأن له بها، إذ راح إلى سوق القماش ودخل في معمعة الشراء والبيع بين التجار، يأخذ من هذا ويبيع إلى ذاك، وأحيانًا يسافر إلى البصرة والناصرية والعمارة إذا بنا نسمع أنه في الموصل وكركوك وأربيل، وصار من الواضح أن حياته انقلبت إلى شكل أفضل، كما أن العمل في القماش لا يشبه العمل في الطين!

وفي أول أياما لعيد الصغير ذهبنا إليه، وكان في البيت المهدم نفسه، وجرجرناه إلى جلسة شاي في مقهى الشابندر، ثم ذهبنا إلى سينما

الفردوس، وعند المساء احتسينا البيرة في (الركن الهادئ) قرب سينما الخيام، وتم كل شيء بسلام وأمان، لولا أن رابعنا راح يسأله عما جرى له من انقلاب بين عمل الطين والاشتغال في تجارة القماش؟ إذا به يقول "أنا لست بتاجر، بل أبيع لهذا ما يناسبه وأشتري من ذاك ما ليس بحاجة إليه، وكلمة تاجر كبيرة على أمثالي" أما عن أحواله بعد هذا التغيير فلم يقل سوى: الشكوى لغير الله مذلة.

صاحبنا هذا من أكثر الناس كتمانًا على كل شيء وعلى أي شيء، وطَوال حياتنا معه احترمنا طبائعه وسكوته وعزلته أيضًا، كان اسمه أعجب ما فيه "عنتر فنجان كبسلة" ولم نكن نذكر أمامه غير اسمه الأول لئلا يغضب منا إذا ما جئنا على اسم أبيه وجده، لكن اسمه كاملًا توارى بمرور الوقت وحل محله اسم آخر أحلى وأجمل.

المهم، صار عنتر أكثر شغفًا بتجارة الأقمشة، وصرنا نحن المقربين إليه نستشيره بما يلائم أجسادنا وملامحنا من قماش، وكان بدوره يبيع لنا ما نشتريه بسعر الجملة (أو هذا ما نظنه دون ريب) وكم أسعدنا وأبهج قلوبنا يوم انتقاله إلى بيت فاخر من أربع غرف وصالة كبيرة رحنا جميعنا نشارك في صبغ جدرانه وتأثيث فراغاته وممراته حتى صار من أجمل بيوت المحلة، وكانت عزومته لنا واحدة من الليالي الملاح التي لا تنسى، سمك مسكوف ونبيذ مع ألذ السلطات وأكثرها إغراءً على مائدة الليل.

أما الشيء المذهل والذي يشبه المستحيل في حياة عنتر فنجان كبسلة (صديقنا الحميم) فهو اليوم الذي أصبح فيه (أحدهم) رئيسًا للبلاد، وكان من أقرباء والده "فنجان كبسلة بسم الله" إذا بصاحبنا يفتح متجرًا في سوق القماش اشتراه من تاجر أفلس منذ شهور بسبب اختلافه مع الحزب الحاكم آنذاك، وصار عنتر يستورد أفضل أنواع الموسلين والحرير والكشمير والسموكن من سوق الحميدية في دمشق ومن أسواق استانبول وبازار طهران وشارع الحمرا ببيروت، وبات ينافس كبار التجار في السوق الكبير الممتد من جسر الشهداء حتى شارع النهر وصارت بضاعته هي الأكثر شهرة بين النساء والرجال.

أما أكبر مفاجأة في حياتنا، فهي يوم سهرنا في بيت عنتر فنجان، سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب في الواحدة ليلًا، إذا به الرئيس نفسه، شاركنا الطعام والسجائر والشراب، وعند أول خيوط الفجر أمر (سيادته) أن يكون عنتر فنجان كبسلة من بين أعضاء مجلس الإدارة في غرفة تجارة بغداد ومنحه الهوية الخاصة (الرقم الواحد) في هذه المؤسسة العريقة.

بعدها صار عنتر (صديقنا الذي نحبه) يسرح ويمرح ويسافر بين بلاد وبلاد، يشتري البالات من لندن وباريس ويبيعها إلى الفقراء في القرى والأرياف وداخل المدن الصغيرة بأسعار معقولة ومناسبة لكن أرباحها ليست قليلة قياسًا بالكميات التي تصل إلى مخازنه، حتى منَّ الله عليه بخير ما كان يحلم به، ثم اختاره وزير الدفاع –بإشارة من الرئيس– مسؤولًا عن تجهيز الجيش في معسكرات بغداد والحلة والموصل بالملابس

العسكرية، وكانت تلك ضربة حظ لا تأتي في العمر كله إلا مرة واحدة، بينما جاءت من نصيب عنتر فنجان كبسلة ثلاث مرات عبر ثلاثة مواسم متتالية.

وهكذا انتقل صاحبنا إلى قصر شامخ مهيب على شاطئ النهر، وجاء بالعشرات من عمال الطين للعناية به قبل قرار الانتقال إليه، وكان يعطي كل عامل سبعمائة فلس بدلًا من نصف دينار مع فطور محترم كل صباح، وصرنا نحن أصدقاء عنتر الثلاثة نسهر معه في القصر المنيف بين أسبوع وآخر، وأحيانًا نسمعه وهو يطلب منا البقاء في البيت، لأنه كما يقول يشعر بالكآبة حين نغادره، لاسيما وأن القصر كبير عليه وحده، ثم تزوج من سيدة فاضلة كانت هي السبب وراء تخفيف السهرات، لكننا برغم ذلك كنا نلتقي في مكان بعينه كل خميس.

وتمر بنا الشهور والسنوات، بين ليل أحمر ونهار شتائي يسبه الثلج، نراقب ميسرة عنتر فنجان من عامل طين بأجرة لا تزيد على نصف دينار إلى تاجر عملاق في سوق القماش، مع أنه في كل مرة نشاركه الجلوس في أحد متاجره وفي فروع أسواقه المنتشرة في بغداد يكرر لكل من يدخل المكان ليشتري: إن الشكوى لغير الله مذلة، لكنه يقولها هذه المرة لمن يتوسل تخفيض السعر أو يحاول الاحتيال عليه.

وكنا –في سرنا– نضحك ونضحك على ذاك الماضي المنحوس الذي رحل عن صديقنا عنتر، ثم نوشك أن نسأله: ألا ينبغي نسيان هذه

الأسطوانة عن الشكوى؟ ستشكو لمن ولماذا يا عنتر؟ ثم نتذكر أن اسمه لم يعد كذلك، فقد تمكن من تبديل أشياء كثيرة، اسمه، حرفته، ومسقط رأسه، وتاريخ ولادته، ولم يبقَ من شيء فيه لم يتغير منذ أن زاره الرئيس في بيته وحتى اليوم الذي أصبح فيه (وزيرًا) ثم (نائبًا) للرئيس، وأشياء كثيرة تغيرت بالنسبة لنا أيضًا، نحن أصدقاء العمر، فما عدنا نراه إلا مرة واحدة في كل ثلاثة شهور أو أربعة، ثم ما عدنا نراه مطلقًا منذ أن جاءنا خبر اعتقاله وغيابه عن شاشة التليفزيون وعن الصحف اليومية ومصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة، ثم حذرونا من ذكر اسمه أو الكلام عنه وإلا كان مصيرنا مثل مصيره.

لا ندري أي شيء عن مصير "عنتر فنجان كبسلة بسم الله" الذي ما يزال بالنسبة لنا عامل الطين المسكين الذي لا تزيد أجرته على نصف دينار، وها نحن نجلس في المقهى مساء كل يوم، لا نتكلم ولا نحكي عن أي شيء، وكل واحد منا يحدق نحو صاحبه ولسان حاله يقول:

– إن الشكوى لغير الله مذلة.

البناء التحتي لإبداعنا

لم يبقَ أمامنا غير الاحتفاظ بما بقي من رموزنا الكبيرة في الرواية والمسرح والغناء والقصة القصيرة والنحت والموسيقى والفن التشكيلي بعد أن خسرنا البنية التحتية لبلادنا المغلوبة على أمرها.

دعونا نتذكر كبار مبدعينا الذين ارتبط إبداعهم بالعراق واسمه وسمعته ومجده وتاريخه وحضارته، وأن نقول فيهم كلمة حق قبل أن يسدل الستار على حقبة من الزمن لا ندري فعلًا ما سيأتي بعدها من ويلات وكوارث وزلازل وانقلابات وحروق.

فقد كان من حسن الحظ، أنني حضرت حفلة عزف على العود للفنان العراقي الكبير (نصير شمة) في القلعة الأثرية في عمان، وكدت لولا بقية من حياء أن أقطع شرايين يدي تصفيقًا لهذا المبدع الخطير الذي جمع الأوجاع كلها في أوتار العود الشرقي الذي بكى وشكى وناح وتألم وتوجع وأرغم الحضور على الوقوف إجلالًا وتحية وتقديرًا واعتزازًا لهذا الفن الرفيع الذي وصل به (نصير شمة) إلى مرتبة المطر ومكانة العشق وسيادة الوجد وأخذنا معه صوب الإحساس بما عشناه من حروب وقروح ومتاعب منذ أول رصاصة (هلهلت) فوق سطوحنا ومنذ أول شهيد أخذناه إلى مثواه الأخير.

وهناك عزف على الرواية ينبغي الانتباه إليه، يشارك فيه أجمل مبدعينا كم تمنيت والله أن تصل أعمالهم إلى كل بيت، حتى يكتشف الناس أية موهبة جاءت من العراق وتناثرت في المنافي، فهذا فاضل العزاوي الذي كتب (الأسلاف) وذاك إبراهيم أحمد الذي أبدع (طفل الـــC.N.N) ومثلها جنان جاسم حلاوي وسليم مطر ونجم والي وعبد الخالق الركابي الذي يعيش منفيًا على عكازته منذ عشرين سنة برغم أنه لا يزال في بغداد.

وفي الغناء يتسابق كاظم الساهر مع (مافيا) الفيديو كليب ويظهر في عموم الفضائيات بعد أن كسر الطوق المفروض على الأغنية العراقية، وسوف نرفض نسيان (حسين نعمة) وإلياس خضر ومن قبلهما المرحوم داخل حسن الذي صار صوته علامة فارقة للحنين والوجع العراقي في كل شبر من المهجر المجروح بإنسانيته المعذبة.

في المسرح لا تزال بصمات خليل شوقي وناهدة الرماح وجواد الأسدي وقاسم حول وعوني كروني إشارة إبداع تشير إلى مستقبل يعمل على إشعال الذاكرة منذ (النخلة والجيران) حتى آخر نخلة أحرقوها في الجنوب.

العالم قد ينسى ما عندنا من مواهب كبرى، لكن إصرارنا على التذكير هو الذي يثير الأسئلة عما حل بنا من فواجع وأخطاء وجرائم كانت أصغرها تكفي لتحطيم كل شيء في أي بلد آخر مهما كانت أساسيات حجارته وشعبه ومبدعيه.

في القصة القصيرة لا تزال المسافة شاسعة ومحترمة بين مبدعيها وبين الشرخ المهول الذي أصاب عصب الحياة في عراقنا المسكين، عشرات الأسماء تكتب وتنشر نتاجها شمالًا وشرقًا، وتعرف أنها مقروءة جنوبًا وغربًا، وإذا ما قرأنا كبريات المجلات الثقافية "أبواب، الآداب، نزوي، الرافد، فصول، أفكار، العصور الجديدة، المدى، الموقف الأدبي، كتابات معاصرة، والبحرين الثقافية" سنرى العراقي يحتل مكانه الصحيح في الزمن الصحيح، وفي بعض تلك المجلات نرى نسبة القصائد والقصص والمقالات بأقلام عراقية هي نصف المجلة دون اعتراض من محررها الذي يدري تمامًا لا مناص من نسبة كهذه ما دام الإبداع لا يعرف التزكية ولا يفهم المجاملات.

ومع الفن التشكيلي لا نحتاج إلى دليل على مكانة الفنان العراقي، يكفي أن نذكر ضياء العراقي وهشام سمرجي وفيصل لعيبي وصلاح جياد، وبرغم الاعتراض على أسماء لم تقل كلمتها بعد، لكن نسيانها حالة من الكفر بما أعطت من عطاء وجمال وخصوصية، لاسيما علاء بشير، ومحمد مهر الدين، ورافع الناصري، وسعيد شنين، وعشرات غيرهم.

مشكلة التاريخ عندنا في العراق، أنه صار دون (تاريخ) حتى نتمكن من أرشفة الأسماء والحالات والحسنات والمثالب، وقد اختلط الصواب مع الخطأ كما اختلط الحابل بالنابل والحضاري بالمتخلف، وليس من أحد يعنيه ما يدور من شوائب وإسفاف وتخبط بين المبدع والدعي، حتى صار بإمكانك أن تسمع بمعرض يقام في (باريس) لشخص لم تسمع به وقد تقرأ

عن محاضرة في (مدريد) لأستاذ لم يكن من تلميذ واحد بين يديه طَوال حياته!

إننا نسقط في مصيدة افتراضاتنا ولا نعترض، ثم يتكرر الانزلاق إلى فخ أوهامنا لكننا نترك الحبل على الغارب ونسكت عن أول حقوقنا، خوفًا من أن يقال بأننا لا نعرف هذا الفنان (العظيم) أو ذاك الأستاذ الجهبذ الكبير!

لكن الشمس كما يقال لا يخفيها أي غربال، وسوف يبقى الكبير كبيرًا والمبدع مبدعًا مهما حاول الصغار رسم الخرائط بأسلوبهم المفبرك المعوج الكاذب، وأعني بذلك أن يبقى (نصير شمة) و(فاضل العزاوي) و(كاظم الساهر) و(هاشم سمرجي) و(خليل شوقي) وغيرهم من عمالقة الفن والفكر والأدب حتى إذا حاول البعض كسر شوكتهم أو تحطيم مجدهم بأي كلام يقال وأي فعل مدفوع ثمنه مسبقًا!

الحياة كما نعرفها، هي مجموعة مفاجآت، بل هي مقامرة غير مأمونة الجانب، لطالما صعد فيها القصير وصار طويلًا، وربما خسفت بالطويل حتى بات قزمًا لا يرى بالعين المجردة، لكن الحياة على امتدادها غير قادرة على إخفاء الحقائق، وسوف يعود الطويل إلى حجمه الذي عاش فيه، ولا بد من رجوع القصير إلى قامته الأولى مهما تمتع بطوله المزيف!

يؤلمني رؤية مواهبنا في العراق وهي تهوي إلى حضيض الكتابات من أجل مكاسب عابرة لا تعني أي شيء موازاة مستقبل الكتابة وألق الإبداع،

ومهما كانت أعذارهم حول صعوبة الحياة وشظف العيش يبقى الفن الكبير بمنأى عن السوقية والترهل والمباشرة والمديح للتماثيل وجدارات السيراميك ورسم البشر على هيئة أنبياء، فهذا هو الكفر نفسه بحق إنسانية الإنسان، كما أن التاريخ لا يرحم، ولنا مع تاريخ الكتابة مئات القصص والحكايات التي ما زالت في الذاكرة منذ المتنبي الكبير وحتى آخر شاعر (مخنث) يقول في إحدى قصائده إن الموت من أجل هذا التمثال أحلى ما نبحث عنه في جنة الله، وقول شاعر آخر: لم أعد أجد في القواميس والمعاجم والمناهل وموسوعات الأرض (ما يناسب) مقامكم سيدي العظيم.

نعم، يجب الانتباه إلى مبدعينا الكبار وإغفال النوع الذي يعتاش على الكلام ولا يعيش به، فالكلمات هي بداية الخليقة وكانت أنظف بكثير قبل أن تتلوث مع هذا النوع من شعراء المناسبات.

دعونا نسمع عزف نصير شمه ونقرأ فاضل العزاوي ونغفو على صوت كاظم الساهر ونرى ما يرسمه فيصل لعيبي ونمضي إلى قصائد عدنان الصائغ وفوزي كريم ونشاهد ما تبقى من مسرحنا المتميز، ويكفينا أن نحتفظ بأسماء قليلة رابحة تعوض خسائرنا بمن باع اسمه ومستقبله.

ماذا تعني الرواية؟!

الرواية عمل صعب، هذا مؤكد، برغم أنها لا تعريف نهائي لها، ثمة من يقول "إرث شعبي تطور عن الحكاية وأضاف إليها شيئًا من روح العصر" والبعض يترجمها بصندوق من الأكاذيب مصنوع من خشب الكلمات الجميلة.

ليس من قول جازم في مفهوم الرواية، سوى إنها تحتاج إلى زمان مرسوم بعناية ومكان مزحوم بالشخصيات، أو هذا ما يقترحه (كريستوف مارتين) أوائل الذين مهدوا الطريق أمام الأدب الرومانسي والكلاسيكي حتى عام **1813** إذ مات بعد أن ترك الكثير من الملاحم الفروسية والهزلية أبرزها روايته (أوبيرن) التي تقترب من أسلوب (ثربانتس) في (الدون كيخوتة).

جان بول سارتر، فيلسوف فرنسا الكبير، الذي كتب أخطر أعماله الفكرية (الوجود والعدم) كان يخاف الاقتراب من الرواية، فهي متعرجة المسالك وسيئة في خضوعها لمؤلفها، إنها تشبه (الفخ) المنصوب لك في أحراش الغابات، وبرغم ذلك كتب لنا أجمل أعماله في (دروب الحرية) التي لم يستطيع إكمال الجزء الرابع منها، ولم تصل إلينا سوى (وقف التنفيذ) و(الحزن العميق) و(سن الرشد) التي ترجمها سهيل إدريس إلى العربية وكانت يومها بمثابة درس عظيم في الوجودية وإدراك الذات.

وعندما نقول إن الرواية لا تفسير نهائي لها، فهذا يعني بالضرورة كثرة ما وصل إلينا من تعريفات بشأنها، إنها في بداية نشأتها انحدرت من اسم فرنسي هو (رومانس) وذلك يعني آنذاك (قصة شاعرية) وكانت في حينها شكلًا أدبيًا شعبيًا مبتذلًا يتمثل في الحكايات الغرامية والمغامرات التي يتناولها البسطاء من الناس!

وفي بدايات الرواية قبل ما يقرب من ثلاثة قرون اعتمدت على كتابة الرسائل، يومها تمكنت الرواية من إرغام القراء على ذرف الدموع والتأوه والحسرات على أبطالها، لاسيما في رواية "آلام فارتر" و"ماجدولين" ورواية (الشاعر) وكلها ارتكزت على الرسائل والمناجاة والخواطر والحب العذري رغم أنها روايات (معاصرة) نسبة إلى ما سبقها من أوجاع وجروح وبكائيات على أطلال العاشق الولهان الذي اختفى في الحروب أو مضى إلى عالم بعيد عن العاشقة الولهانة التي ستنتحر في نهاية الفصل قبل الأخير!

وقد وصلت رواية الرسائل قمة ازدهارها على يد (غوته) في (آلام فارتر) عام 1774 والتي تسببت في انتحار عدد ليس بالقليل من العذراوات والشبان الذين إذا ما عادوا إلى الحياة اليوم لضحكوا على أنفسهم، وربما مزقوا الرواية قبل رميها إلى سلة المهملات!

الحياة تتغير، وكذلك الروايات، وقد شبع العالم من الكتابات التربوية والنصائح والوصايا، وإذا ما عادت رواية (المراهقة) لكاتبها (جان باول)

التي ظهرت عام 1805 لرأينا كيف يمزقها القارئ بعد قراءة السطر العاشر منها، مع أنها كانت أقرب شبهًا بالتوراة لشبان ذاك العصر!

وتبقى الرواية هي العمل الصعب على مر العصور والأجيال، ولا أحد يدري ما هو مصير أعمال (فرانز كافكا) أو (غارسيا ماركيز) أو (جورجي أمادو) أو (إيزابيل الليندي) بعد مائة سنة من اليوم؟ هل يمزقها الناس في عام 3002 أم ينظرون إليها باستخفاف سنة 3072 مثلًا؟ ذلك أن حاجة القراء تتغير بحسب سلطة التكنولوجيا والتلفزيون والسياسة والسينما والرفاهية والفقر وطبيعة العلاقات العامة والخاصة في كل حين!

ما يشغلني اليوم هو السؤال عن مصير أعمالنا العربية، وكم تراها ستبقى في ذمة التاريخ؟ فقد دامت ملحمة جلجامش أكثر من ثلاثة آلاف عام ولا تزال في ذاكرة الشعوب، أما ألف ليلة وليلة فقد تستمر ألف عام وعام آخر في وجدان القراء شرقًا وغربًا، وكذلك الحال مع (الدون كيخوتة) و(الحرب والسلام) وغيرهما من الكتابات الخالدة، فما هو مصير الرواية العربية التي يكتبها نجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف وسهيل إدريس ونبيل سليمان وحنة مينا وأمين معلوف والطاهر وطار وغائب طعمة فرمان وفؤاد تركلي والطاهر بن جلون وصنع الله إبراهيم، وغيرهم؟!

لا أحبذ الافتراضات بشأن الرواية العربية، لكنها كما أرى لن تستمر طويلًا، والسبب يكمن في أنها رواية لا تشتغل مع المستقبل، بل تعمل على مداواة الحاضر بأسلوب عفوي فطري أقرب ما يكون بالمسلسلات التلفزيونية أو الأفلام التي يفرح لها المراهق وربة البيت والموظف الحكومي الذي يبحث عن الراحة في بيته بعد أن ارتدى (الجلابية) ويسأل زوجته عن وجبة العشاء لهذه الليلة!

يقول (تيودور فونتانة) في إحدى مقالاته عام 1874: ينبغي على الرواية أن تكون صورة العصر الذي تنتمي له، وبرغم أن أزمة الرواية وتعريفها لم يتم تجاوزها حتى اليوم، لكن بعض أدباء العربية يفترض التفسير كما يشاء ويقرر مكانها وزمانها كما يريد، وخير مثال على ذلك قول أحدهم "إن الرواية مجموعة أفكار عليها أن تصل إلى القارئ في الزمان المناسب قبل أن ينتهي سحرها أو يجف مفعولها"!

ذلك أن المرء كان يبحث عن أدب أصيل جدير بالثقة، وحين رأى (الرواية) أمام عينيه، تساءل عن هذا اللغز الذي يطول ويمتد على الصفحات، ولم يتمكن في حينها من شطب هذا الجمال، بل أرعبه الشكل الغرائبي الذي جاءت به الرواية وحاول أن يتماهى مع أسرارها فما عثر على شيء يستجير به غير رمضاء كتابتها وقد تجاوز خبرته البسيطة في الكتابة والإبداع قبل دخول القرن العشرين.

سنعود إلى القول ثانية: إن الرواية عمل صعب وعسير، وأن أي تفسير جاهز لها سينتهي إلى تفسير آخر، فهي خيال يقترب من الواقع، وتاريخ يرفض الجغرافيا، إنها القرين للأسطورة، وقد تكون المخيلة بعد أن تحررت من الافتراضات.

لقد ارتبط نشوء الرواية في النصف الأول من القرن الثامن عشر في بريطانيا قبل سواها من الدول، كما يقول الدكتور جهاد عطا نعيسه، لكنه يحكي عن الرواية المعاصرة دون ريب، أما عجائب الرواية وأساطيرها فقد بدأت في أزمنة لا أحد يمكنه تحديدها أو اكتشاف زمانها المؤكد.

والأغرب من كل ذلك، وهو أنها تحتاج إلى تفسير نهائي بشأنها، وهو ما يعجز عنه كبار النقاد وجهابذة الرأي، فهل تراها تقليدًا للحكاية الشعبية، أم هي تطوير للموروث القديم، أم هي خلق حداثي لا علاقة له بما فات من إبداع شعبي؟ ولعل أجمل ما سيقال عنها هو أنها حفنة من القصص تترابط فيما بينما حتى ترسم لنا هيكلًا متجانسًا من الأفعال والصور والتخيلات!

وكل هذه التفسيرات صحيحة، لكنها ليست صحيحة في الوقت نفسه!

محاضرة أنا جمهورها!

سوف أرسم لكم الصورة بطريقة المونتاج السينمائي، قد لا تتشابه اللقطات لكنها في النتيجة سوف تؤلف الفيلم الدموي الذي قررت إخراجه بنفسي، كما أن السيناريو،

مكتوب بقلمي أيضًا وكذلك الحبكة والخدع السينمائية وترتيب المشاهد، ولا بد من القول إن المخيلة لا شأن لها بهذه الرواية، وليس من ماكياج أو زخرفة أو تزويق بل هي قصة من النوع الذي ترونه في مجلات التسلية تحت عنوان (صدق أو لا تصدق) ومن حق أي واحد منكم أن يصدق ما سوف أقول أو لا يصدق ذلك أن المأساة العراقية وحدها بين فواجع الأرض صارت أعجب الغرائب وأغرب العجائب ودعونا ندخل إلى صالة العرض دون تذكرة وبلا تدخين، والرجاء غلق التليفونات الخلوية لئلا تؤثر على هندسة الصوت في سيناريو الدم الذي أنقله كما عشته ورأيته.

***

هذه الليلة أدخل في السنة الرابعة "غربة" عن بغداد التي أحببتها وطرطشني ماؤها عند صحوي وخمريتي، أسكب كتاباتي على أزقتها وأحلى دروبها، وأغازلها بين السطور كل مساء عساها تغفر لي رحيلي عنها.

ربما أكتب الآن وصيتي، ومن حق حبيباتي أخذ نصيبهن مما سأترك من قصص وأموال وأخطاء وطيبات وحماقات ومغازلات وأسفار جمعتها كلها في حفنة من الكتب أزداد بها إفلاسًا بعد كل سطر أكتبه "لكم"!

خمسة كتب في القاهرة، وتسعة في بيروت، وكتابان في دمشق، وكتاب واحد في يوغسلافيا، والبقية من نصيب حبيبتي بغداد، كان المفروض – كما هو الحال في واشنطن أو روما أو لاهايي أو باريس– أن أصبح غنيًا جدًا بعد سبعة آلاف صفحة هي مجموع مؤلفاتي، أنام في "بيفرلي هيلز" وأحتسي النبيذ في هوتيل "حياة ريجنسي" وأطارق بعضهن الهوى في شارع "الشانزليزية" أو بفروع "الموغارتر" أو أجلس في شرفة بيتي الذي سيعوم قرب الدانوب الأزرق أو بيتي الذي يمازح أسماك النيل في شبه جزيرة الزمالك!

لكنني بدلًا من هذا كله، ما زلت أول الصعاليك وأغنى الفقراء، أفتش عن يومي وأخاف من غدي، وإذا ما جاءني (طارش) يحمل بشري كتاب يضاف إلى ميراثي، تراني أهب فورًا لكتابة ما سأخسره من كنوز أصابعي وأمواج ذهني وأوجاع قلبي ومتاعب أهدابي وقسوة ما سيأتي من أسئلة وكلام وجروح!

***

في الغربة أيقنتُ كم خسرنا وكم خسرتُ شخصيًا من مجد ورعاية ومعرفة ومعلومات أيام كنت أحيا بين النهرين، كان العثور على قناة

فضائية من المعجزات، وكان الحصول على كتاب ممنوع إنما هو نوع من الإرهاب الفكري ضد الحكومة، وليس من مسرح ولا سينما ولا موسيقى ولا قصة قصيرة ولا لوح رسم ولا قصيدة إلا ما يصب في خدمة الطغاة مباشرة نكتب أكثر من سوانا –في الوطن العربي– وبرغم ذلك نبقى وراء حجاب سميك أعرض من حدائق بابل وأطول مرتين من سور الصين العظيم، كنا نخسر، ولم نعرف الربح إلا إذا فرشنا البساط الأحمدي تحت أحذية المسؤول الأكبر، وفي الحالات التي لا نجد فيها السجاد (الكاشان) علينا أن نرمي بأجسادنا ومؤلفاتنا وأفكارنا ليمشي عليها ويضحك منا وهو يتبختر كالطاووس فوق لحومنا ومشاعرنا وأجمل أحلامنا، ثم لا نسمع منه غير "عفارم شباب" مع حفنة من الدنانير التي سرقها من جيوبنا ومن أفواه أطفالنا، ثم أعادها على شكل هبة إلينا.

رميتُ نفسي منذ خروجي، على كومة من الكتب التي لم أرها في وطني، ومضيتُ بين أوراقها عساني أفهم "أين كنا وماذا جرى خلف ظهورنا" صارت القراءة حالة موجعة من حالات الكشف عن حقيقة الرعب الذي غلفوه بسيلوفين السمسرة الثقافية والتكريمات التي ندفع أثمانها (ماء الوجه) الذي تساقط من ضمائرنا قبل أن ينهمر فوق فراشنا في الليل ونحن نؤنب أنفسنا على ما كتبناه في النهار!

قرأتُ نفسي لحظة أن قلبت أوراق (بيت العقرب) و(العراق دولة المنظمة السرية) و(الخارج من المحرقة) و(كنت ابنًا للرئيس) و(مدينة النحاس) و(ديمقراطية الموت) و(الجنرالات آخر من يعلم) و(فندق السعادة – قصر

النهاية) وغيرها، حتى أنني مشيتُ المسافات المحروقة إلى أقصاها، وأنا أجلس دون حراك في عمان وجدة والقاهرة، أقرأ المجلات التي ما كنتُ أراها، وأشارك في الصحف التي أرعبني ذكر اسمي فيها أيام هددوني بالكفّ عن النشر فيها.

أرى اليوم ما أريد أن أراه اليوم، وأقرأ الليلة ما أفكر في قراءته الليلة، وأنام فجرًا في المكان الذي يشاء عقلي فجرًا، والمهم هو أنني رحتُ أكتب كل ما يعتصر قلبي من مقالات وقصص وحقائق واعترافات وروايات لم أجرؤ على كتابتها في بيت العقرب على مقربة من العسس والجندرمة وكتاب التقارير وشعراء المناسبات، رفعتُ يدي بحذائي مرة واحدة وسحقتُ سموم الحشرة السوداء القبيحة حتى تلاشت تحت شسع فردة من حذائي، بحيث تراءى لي أن امرأة في البصرة وربما في العمارة راحت تهلهل وهي ترى مصير العقرب في جزء من الدنيا، مهما ابتعد المكان ومهما تشظى الزمان.

***

في ثلاثة أعوام فقط، تمكنتُ من طبع تسعة أعمال إبداعية، كانت تغفو على رفوف طموحاتي في بغداد، وكتبت رواية ما كنت أظنني سأكتبها قبل موتي، جمعت أشلائي وأفكاري وذكرياتي في سلة خوص أشم منها رائحة الشوارع الخلفية في البصرة والناصرية والعمارة وأدغدغ من بين خصاصها أمواج الفرات وشط العرب، ثم أنام على بُعد أمتار من سعفها المبلل بدموع سعادتي وأنا أرى عبد الستار ناصر يتوزع ما بين عمان

وبيروت والقاهرة ودمشق ويمضي عبر معارض الكتاب إلى ميشيغان وفرانكفورت ومدريد وروما دون أن يمنعه شرطي من أهل الرصافة أو يجرجره مخابراتي من تكريب أو يضربه (وكيل) من عملاء الأمن العامة!

تمكنتُ بعد ثلاثة سنوات من الغربة الجارحة اللذيذة من اكتشاف لغة الطيور، وربما تعلمت منها كيف أحلق عاليًا دونما أجنحة، سافرتُ بصحبة أحلامي إلى البحر الأحمر والبحر الميت وبحر الصحراء الكبرى، ثم اختلط في صندوق رأسي متحف اللوفر مع متحف الشمع "أين تراني رأيتُ اسمي ومغامراتي ورسمي وخصوصيات طفولتي وصباي؟!" لا أدري، لم يكن معي غير طائر أنيق واحد تبرع أن يرشدني إلى ذكرياتي وأصدقاء سكرتي، فربما كتبتُ مذكراتي ومقامراتي ونذالاتي وطيبة قلبي وجرائمي، ما دمت حتى هذه الساعة أحتفظ بقوة ذاكرتي، لكنني وقفت ما بين الغيوم والبروق والنيازك والأمطار، ورفضتُ أن أحيا على ذكريات ما عادت تنفعني، كما منعت روحي وجلدي من شم رائحة المعتقلات ونتانة أجهزة الموت، فما عاد في العمر من بقية أتحسر فيها على أيام قتلي في سراديب المخابرات أو أشكو أمري لمن يهمه أمري، لأنني أعرف أن الذبح صار من نصيب كل بريء يحمل هوية الأحوال المدنية في العراق، وأنا لست إلا واحدًا من هؤلاء.

لا ينفع التذمر، ولا يفيد الندم، ينبغي حفر بئر في الصحراء حتى ينبثق الماء وتبدأ الحياة ثانية، لا بد من سلاح نصنعه بديناميت أفكارنا حتى نحارب البربرية والبلاهة والمغول، لا بد من قصة قصيرة أفضل، وقصيدة

أجمل، ورواية لا نصفق عند نهايتها لأنفسنا، بل نكتب فورًا ما هو أقرب منها إلى نفوس (المشائين) صوب الحرية والخلاص والمساواة حتى نحقق الحرية لضمائرنا والخلاص من خوفنا والمساواة مع العالم الذي يُضاء بالكلمات.

أخطأت كثيرًا في حق نفسي، كان ينبغي الخروج مبكرًا لئلا يتلوث ذاك الجزء الخفي من الروح، ضاع مني كشف حسابي مع النفس ولم أعدْ أعرف الفرق بين موت وموت، وبرغم أنني مخنوق تحت وابل كثيف من السكاكين والسيوف، إلا أنها ترفض أن تقطع رأسي، لكنها تقترب من أوردتي ويخدعني نورها الممزوج مع لهيب الشمس "إن الذبح قريب جدًا"، لكن السنوات التي ترعرعت بين الثعالب والذئاب ما زالت تضحك من عنادي على البقاء حيًا!

سأعترف أن الموت جاءني ذات يوم، حاصرني وتلذذ بخوفي، ربما عاتبني – والعتاب كما تعلمون على قدر المحبة– لكنه عافني لمصير آخر (؟) من يدري، ربما هو امتحاني الأخير في قبو الحقائق والمستقبل، وأنا أدري أن العدالة دون قوة إنما هي عدالة عاجزة، وأدري أيضًا أن القوة دون عدالة إنما هي قوة ظالمة، والذي يعرفني جيدًا، يعرف أن القوة ليست مهنتي، ويعلم أيضًا أن العدالة ما ساعدتني أبدًا على إنقاذ أيامي من أخطبوط الظلم وما حررتني من خرتيت الحقد والضغينة، ولم تستطع أن ترحمني من النميمة والاغتياب والفقر والمهانة!

آمنتُ بما أراد النبي "محمد" بقوله "كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، فهل يتمكن أي واحد منا تنفيذ حكمة عظيمة كهذه؟ أنا شخصيًا لا أستطيع الصبر على مسالخ القتل أو تحطيم الأُمنيات أو منع الأحلام، وقد سابقني كلاب الصيد بما يملكون من حرام وحلال، فكنت أقطع الطريق –طريق السباق– بما أملك من قصص قصيرة وكتابات لم تسعف خطواتي في الفوز، بل هي نفسها (قصص) من صار عائقًا أمام انتصاري عليهم أو حتى نجاتي منهم!

غلبني كلاب الصيد، وصار كل واحد منهم يعرف حجم هذا الكائن المضحك الذي اكتفى بالأوراق والسطور والكلمات سيفًا يريد أن يحارب به أنياب الذئاب ومخالب النمور وسموم الأفاعي، بينما –وخجلًا من نفسي قبالة نفسي– رحت أكرر في زاوية من ضلوعي التي كسروها ما قاله الإمام علي: إن أفضل الزهد هو إخفاء الزهد.

أقولها حتى أحفظ بعض كرامتي في "قربة" أعرف أنهم ثقبوها قبل أن أُلملم فيها انكساراتي وهشاشة قبضتي وعظامي، فقد أخذوا كل شيء، بما في ذلك مالا نعرفه من ممتلكات أفكارنا التي تبعثرت في الطريق حين كنا نسابقهم، وأعني بذلك طبعًا حين أوهمنا أنفسنا بسباق نزيه عادل ونظيف، إذا بهم فرشوا –بالشوك والمسامير– الجزء الذي سنركض فيه، وكدنا برغم الجروح وبرغم الشوك والمسامير أن نفوز عليهم لولا أنهم ضربونا بالسياط طَوال الطريق!

الأفكار –والحمد لله– معفاة من الضرائب، ماذا تراهم فاعلون بنا لو كانت الأفكار تباع وتشترى؟!

***

الحياة مجموعة ذكريات، تجمع رحلة الطفولة إلى سفر الصبا ودموع المراهقة والحب الأول، تأخذك بداياتُ الرجولة بخطى جد سريعة إلى الكهولة مع متعة هنا ومباهج صغيرة بين مكانٍ ومكان، خطوات حلوة بين زواجٍ وأطفالٍ ومتاعب تمسحها القناعة التي كانت وستبقى كتر البسطاء من الناس، إذا بك تدخل بيت الشيخوخة تنتظر أيامك الأخيرة وأنت تحاول أن تتذكر ماذا فعلت وماذا أنجزت من إبداع أو خرائب أو حلاوات أو مرارات وماذا كان دورك في السياسة والحروب والثقافة، إذ بك وحدك في النهاية برغم جيوش البشر الذين كانوا معك منذ الطفولة حتى القبر!

في يومٍ من عامِ 1975 رأيتُ نفسي في غرفة انفرادية لا أدري أين كانت من خارطة بغداد الجوانية، وفي تلك المساحة من اللا معقول لم أعد أعرفُ المستقبل، بل صار الماضي وحده يسرح ويمرح في رأسي، لا أحد معي، ولا أسمع غير الأنين ودعاءٍ كئيب يكرر (الله أكبر).

لا أعرف من ذلك المكان، الليل من الفجر من النهار من لظهيرة، ولا أدري نوع الطعام الذي يُقدم لي، باميا أم فاصوليا أو سبانخ إلا من رائحته وطعمه، فما كنت أرى أي شيء لكنني أتحسسه، أشعر أن بقية

الغرف حولي، تحوي بشرًا يقتربون من الموت، وأذكر شخصًا قال "يا رب أما يكفي هذا" بصوتٍ قوي مسموع، لم نسمعه بعد ذلك مطلقًا، فقد نقلوه فورًا إلى منطقة تحت الأرض بمسافة تزيد على مسافتنا تحت سطح بغداد وربما ذبحوه!

كانوا يطلقون على كل واحد منا رقم غرفته، لا قيمة للأسماء، لا قيمة للشهيق والزفير، لا قيمة للأمنيات والأحلام، لا قيمة للإحساس الذي ينتاب كل واحد منا، كنا مجرد أرقام بلهاء بالنسبة للجلاد الذي يأتي في كل ساعة وفي كل لحظة ليتأكد جيدًا أن (الأرقام) كلها تحت سيطرته، حتى يمضي ضاحكًا وهو (يلعن) أجدادنا دون سبب!

أشهدُ بأنني سمعتُ بذلك قبل أن أصبح أنا نفسي الضحية التالية في تلك الشعاب والممرات البشعة التي لا تدري بها لجنة حقوق الإنسان، ولا منظمة العفو الدولي، ولا جمعية حماية الحيوان، والتي لا يعرف عنها العالم أي شيء، وهي نفسها الممرات والشعاب التي لا يدري بها الأمين العام للأمم المتحدة، بحيث يبقى السؤال حيًا طَوال حياتي "لماذا لا يفتش العالم عن مصائر أولئك الناس وهم في جحيم لا يوازيه سوى جحيم يوم القيامة؟!".

عندنا من السجون والمحاجر والمعتقلات أقذر ما ابتكره العقل البشري من آلات التعذيب، عندنا المئات من أحواض السيانيد، والمئات من كلاب مسعورة جاهزة لنهش الضحايا، عندنا أقبية للقتل عن طريق التماسيح

التي تأكل الإنسان في أقل من خمس دقائق بحيث لا يبقى من جلده ولا عظامه غير دعاء ذليل صوب الله يتلاشى أمام كاميرا "الفيديو" وهي تصور مراحل القتل ثانية بعد ثانية ليراها السيد "المسؤول" حتى يطمئن قرير العين أن "تماسيحه" ما زالت بخير وأن أنيابها ما زالت قوية جدًا وأنها على أتم استعداد لنهش بقية (المواطنين)!

إن زراعة شجرة صغيرة في البيت، هو أعظم بكثير من حرق تلك الشجرة بحجة أن نتدفأ عليها، وفي يوم كهذا من عام **1975** كانت عندي أكثر من شجرة فارعة جميلة أحرقوها أمام شبابي وقُبالة أحلامي، لم تكن هناك في تلك السنوات أجهزة مبتكرة لذبح المواطن، لذلك اكتفوا بتعذيبي وفق الطرق التقليدية آنذاك، قطعوا جميع أشجاري وأفكاري وأمنياتي ورموني إلى غرفة لا نوافذ فيها، ربما كانت فوق مستوى الأرض أو تحت مستواها، من يدري؟ كانت الأرض غير الأرض التي نعرفها، أما القتل فهو على المستويات كلها، والعالم ساكت لا ينطق بأي شيء!

أظنني خسرت نصف مستقبلي في تلك المساحة المعوجة من بغداد، يوم خسرت القراءة والكتابة والرغبات والنساء والأصدقاء، ولا سؤال في جعبتي غير سؤال واحد فقير: لماذا نحن مهملون إلى هذا الحد؟ لماذا تركونا للكلاب البوليسية والتماسيح وأحواض السيانيد؟ لماذا قطعوا النخيل عن بلادنا؟ لماذا لا أحد يسأل عنا؟ من السبب وراء هذا النكران الفاحش لحقوق الإنسان؟ والجواب أعرفه وأصدقه تمامًا، بل وأختم بأصابعي عليه، وهو أننا لم نعد ملك أنفسنا، ولم يعد (الوطن) ملك أحد منا، لقد باعونا

إلى جهات أجنبية دفعة واحدة وبالعملة الصعبة، أخذونا على وجبات من الحروب والكوارث والمسالخ حتى لا تتشابه عملية البيع والشراء على شاشات التليفزيون العالمية، والحمد لله –الذي لا يحمد على مكروه سواه– فما زلت أعتقد أن تلك الجهات الأجنبية، أكثر رحمة بنا من أبناء (المسؤول) عنا فقد وفروا المنافي بالجملة والمفرد، وأعطونا جوازات سفر بأسماء المدن التي نمضي إليها، وابتسموا في وجوهنا وقالوا أهلًا وسهلًا لكل واحد منا، حيث لا تماسيح ولا كلاب مدربة على أكل البشر.

الحمد لله ثانية، هو وحده الذي لا يُحمد على مكروه سواه، لكنني على الرغم من وجع الغربة والاغتراب، أشعر بالخوف والقرف معًا، كيف أن الوطن العربي العظيم كان يزهو بالقوة والكبرياء والمجد والنخيل والأدباء والفلاسفة وأولياء الفكر والهندسة والطب والتاريخ، وكيف أنه سقط (بالتقسيط المريح) سنة بعد سنة وساعة إثر ساعة.

إن أخطر ما نحن فيه اليوم، هو أننا لا ندري ولا نعلم بما ينتظرنا من أخطار، لا غرابة في أن يتحطم السقف الذي نجلس تحته الآن بفعل (قنبلة) تركها أحدهم حتى يتمتع بمشهد الموت ورؤية أشلائنا وهي تتطاير في الفضاء، لا غرابة في أن نفتح الحنفية ونرى ماءها ينهمر بالفيروسات التي تذبح شرايين القلب وتلوث الكبد والدم والطحال، لا غرابة في أن نرى خارطة العالم ذات يوم وقد تشظت منها خمس أو سبع دول عربية أو إسلامية، لا غرابة في أن نرى ذات صباح مشرق نصف بلادنا وقد اختفت عن مكانها بفعل خطأ في إنترنت "البنتاغون" مثلًا!

والعجيب هو أن الإنسان الذي يبني الكاتدرائيات والأبراج وناطحات السحب كلها، هو نفسه الذي يأتي بسلاحه حتى يخسفها ويقلعها من جذورها، والأغرب من ذلك هو السباق المحموم نحو بناء عالم يحقق الرفاه والجمال والسلام، مع سباق مع النوع نفسه نحو هدم المدن والجسور والمطارات والقلاع التي كانت محصنة ومنيعة بقوة الإنسان، إذا بها محض أطلال وحطام وضرائب وأشلاء بقوة الإنسان أيضًا.

ليس المهم أين كان البناء وأين تم الحطام، وليس المهم من اقترف الجريمة ومن راهن على أبطالها، فهذا العالم بالنتيجة الكونية هو ملك الإنسان الأبدي من الشرق كانت جنسيته أو من الغرب جاءت هويته، فالمستقبل غير واضح أبدًا وغير معلوم على الإطلاق، وقد يأتي اليوم الذي نرى فيه (أميركا) بجلالة ولايتها، تطالب بحمايتها من (أفغانستان) وقد يخرج علينا مذيع قناة **C.N.N** ليقرأ علينا –دون أي انفعال أو ارتباك أو استغراب– نبأ احتلال (موسكو) وقيام دولة الشيشان المتحدة، وقد نسمع عن أفقر مدن العالم المهملة سياسيًا والمنسية إعلاميًا بأنها نائمة على بحر من الذهب وبحر من النفط، إذ بها بين ليلة وضحاها تصبح رسميًا من أُولى عشيقات أمريكا ومن أجمل حبيبات فرنسا ثم نسمع أنها الابنة البكر الضائعة منذ طفولتها عن الإمبراطورية البريطانية، وما هي إلا بضعة أعوام حتى تشن الحروب من أجل استعمارها ونهب ثرواتها، أو إرغامها على التبادل التجاري وشراء الأسلحة، أو طلب يدها للزواج منها، وهذا كما سنرى أضعف الإيمان.

لا عجب يا سادتي في أي شيء، مهما كان حجمه ومهما جاءت لا عقلانيته وغرائبيته، إنما المؤسف وراء ذلك كله، هو مستقبل الكتابة ومستقبل الكاتب، فهل يمكن ترك التلفزيون إذا ما حلت الحرب في أي جزء من الأرض؟ وهل يمكنك أن تفكر بقراءة رواية "الجورجي أمادو" أو "ألبيركامي" بينما يأتيك الانترنت بكل ما لذ وطاب من أخبار الدنيا؟

وحتى بالنسبة للكاتب المبدع نفسه، كيف تراه سيكتب ويبدع وهو يقرأ ويسمع ويرى كل هذه المجازر والمآتم والمسالخ اليومية في فلسطين والعراق وأفغانستان وأيرلندا ويوغسلافيا، حتى أوشك السلام أن يكون مجرد كلمة حذفوها من قاموس البشرية وأبدلوها –عفوًا– بشريعة الغاب؟

ربما بكى "جلجامش" صديقه "أنكيدو" بكى بحرقة مثل امرأة ترى رأس ابنها مقطوعًا عن بقية الجسد، لكنني أرى شلالات البكاء في بلادنا العربية والإسلامية تتساقط بقوة، وأرى خلف كل طفل يعيش في هذه المدن المظلومة–بحكامها– ألف جلجامش يبكي وألف أنكيدو سنبكي عليه، وعلى الكتابة معًا.

***

أشعر بالعيب لأنني لا أرى من يشعر بالعيب على ما وصلنا إليه، وينتابني الذل إذ لا أشاهد أمام عيني من يعترف بالذل الذي مضينا إليه، أكاد ألا أصدق عقلي (أن عقلي ما عاد يصدق ما جرى) فالجريمة الكبرى صارت محض لعبة، وكل لعبةٍ صارت بمستوى الجريمة، وليس من أحد يعترف.

أكررُ أنا الحياة نفسها ليست غير مجموعة ذكريات وأحلام، وسوف يأتي الوقت المناسب الذي نصحو فيه، وهو الوقت نفسه الذي سنموت قبل أن نراه، لكنني وأنا أتذكر أيامي في قبو النهايات أتمنى صادقًا لو أنني (مت) فيه وكنت نسيًا منسيًا ولا أرى هيكل الذل ولباس العيب الذي أصبح هو (الزي) الرسمي في مدرسة (العروبة) وفي ثانوية (الكفاح) وهو نفسه اللباس القومي في جامعة (الكرامة)، وكلها مع الأسف مغلقة حتى إشعار آخر (الترميم والتحسينات).

أنا كاتب فاشل

بعد أربعين سنة من زمن الكتابة وأربعين كتابًا حملوا اسمي، رأيت في ساعة صحو أن المسافة بيني وبين القصة القصيرة والرواية لم تزل بعيدة.

أنا كاتب فاشل، تجاوز عمري الخمسين ولم أحقق نصف ما حققه غابرييل غارسيا ماركيز أو جان بول سارتر، وحين أقرأ لفرانز كافكا أو استيفان زفايج أو إيزابيل الليندي أو ديريك والكوت أشعر بالخجل كيف أن أفكارهم أكبر من أفكاري وحبكة رواياتهم أقوى من حبكة كتاباتي، وقد سألت نفسي مئات المرات: لماذا أكتب إذا لم أستطع تأثيث بيت يسكنه أبطال قصصي كما هي البيوت التي أراها في نتاج أولئك العمالقة؟

مخيف جدًا أن يكون المبدع أصغر شأنًا من بقية المبدعين، ماذا ينتظر من القراء إذا هو لم يستطع دخول السباق مع أمبرتو ايكو أو شولوخوف أو جورج أورويل أو شوساكو اندو؟ وماذا يعني أن تنشر رواية ستضاف إلى مليارات الكتب التي تباع على أرصفة سوق السراي وشارع السلط والأزبكية وشارع الحمرا دون أن تسمع أي صدى لها في باريس ولندن وأمستردام وروما؟ وماذا يضاف إلى رصيدك وأنت لا تقرأ عن كتاباتك غير أخبار موجزة في صحف أغفلها العالم ولا أحد يشتريها غير أصحاب الإعلانات وقراء صفحة الوفيات وبقية من يحتاج إليها في مطبخ البيت؟

لن أتردد وأنا أعترف بالفشل الذي أحس به، من أين لي بصيرة (بورخس) وأنا أرى كل شيء بينما هو محروم من نعمة البصر؟ كيف أحلم بقصة أكتبها وأنا أتذكر (راي براد بري) الذي يقشعر جلدي أمام كل قصة قصيرة يكتبها؟ أين مكاني في هذا العالم موازاة هنري ترويا الذي كتب (الميت الحي) التي لن أتمكن من إبداعها حتى إذا وصلت الستين من عمري؟

إنني أفتش عن نفسي في كل مرة أقرأ فيها (دينو بوتزاتي) وأمضي إلى فراشي أختبئ حتى طياته لئلا أفكر في (صحراء التتار) وكيف تمكن أن يكتبها على غفلة من طراوة أفكاري وضعف أسلوبي؟ وإذا ما نسيت صحراء التتار تحت مخدتي كيف بي أنسى قصة الطوابق السبعة التي جرحتني وأوجعتني وأبكتني مرتين، فما تمكنت مطلقًا من كتابة قصة بمستواها وما أظنني أجرؤ على مجرد التفكير بيوم سأكتب فيه مغامرة خطيرة كهذه أسبر أغوارها كما فعل بوتزاتي وهو يضحك مني!

أنا كاتب فاشل ولا عيب من الاعتراف، تمنيت أن أكون، لكن الصحراء منعتني من دخول الجنة، مع أنني في السنة التي نشرتُ فيها كتابي الأول (الرغبة في وقت متأخر) جلست في مقهى ياسين على شارع أبي نؤاسس وأنا أنتظر جائزة نوبل التي ستأتي حتمًا قبل الشاي الذي طلبته في ذاك المساء الماطر من عام **1968**.

وحين تأخر السيد نوبل عن تلبية واجباته قلت لنفسي: ما عليك يا عبد الستار، في الكتاب التالي سوف ترغمه على أن يتذكر، الإنسان في كل زمان ومكان مجبول على النسيان، فلا تبتأس، وفعلًا مضيتُ إلى مطبعة البصري في بغداد وأعطيته كتابي القصصي الثاني (فوق الجسد البارد) مع حفنة من الدنانير، وبعد أن وزعته على أكشاك الصحف والمجلات وأهديته إلى كبار القصاصين والنقاد في دمشق وبيروت والقاهرة، أخبرني غسان كنفاني –يرحمه الله– أن ما أكتبه من قصص قصيرة ليس سوى (كلام) يحتاج إلى خبرة وتجربة وغوص في الحياة، جاء ذلك في مقالته التي لا أنساها ما حييت وكان عنوانها (قصص من العالم السفلي للمدينة) فهي أول ما كتبت عني، وكم أسعدتني الشتائم التي رماها كنفاني فوق ظهري، فهي أول إشارة في حياتي تقول: إن الدنيا بدأت تقرأ لي.

***

لم أسكت عن الكتابة ولم أشعر بالعيب مما قرأت عني وعن قصصي، قلت: عليك بالرواية، من يدري، ربما تحقق فيها شيئًا يستحق إعجاب بعض القراء، وفعلًا، رحت أكتب في دفتر كبير (تلك الشمس كنت أحبها) أول رواية خدعتُ بها نفسي، بل أعطيتها إلى حميد المطبعي وهو المسؤول آنذاك عن منشورات (الكلمة) في بغداد، إذا به يجازف بنشرها ضمن منشوراته، ثم أخذها معي إلى القاهرة، وكان أول من أعطيته نسخة منها الصديق الشاعر أمل دنقل، ثم مضيت بقية النسخ إلى شمس الدين موسى وأحمد عنتر مصطفى وفاروق عبد القادر وإحدى الحسناوات اللاتي

يجلسن مع المبدعين ابتغاء مجد قد يأتي سهوًا أو أملًا بصورة تجمعهن بهذا الشاعر أو ذاك الأديب.

بعد أسبوع واحد، كنت أجلس في مقهى (ريش) قرب حفنة من قناني البيرة التي احتساها أمل دنقل وأنا أرجو الله أن يخبرني برأيه عن روايتي، إذا به يقول دون أي حساب لمشاعري:

– عليك أن تبحث عن عمل غير الكتابة، فما كتبته في هذه الرواية لا يستحق أن نحتفظ به في بيوتنا.

الفتاة الحسناء أعجبتها الرواية، لكنها لم تقرأ أي سطر منها، ولم يبقَ من شيء في ذاكرتي غير ما قاله دنقل بلهجته المصرية وهو يكرر: شوف لك سكة تانية تاكل منها عيش.

لم تكن الكتابة بالنسبة لي سكة ثانية أعيش عليها، فقد كنت يومها موظفًا في وزارة الثقافة ولي راتب يكفيني وأستطيع به السفر إلى بيروت والقاهرة وبوخارست وصوفيا واستانبول مرة واحدة في كل عام، لكن جنون القصة القصيرة والرواية أخذني إلى أزهى وأجمل أوهامي، ولم أسمح لأحد أن يكسرني أو يخذلني أو يحطم أحلامي حتى إن كان غسان كنفاني أو أمل دنقل أو ذاك الناقد الذي كتب عني يقول: صارت كتابة القصة القصيرة مجرد لعبة تشبه كرة القدم يلعبها حتى الأعرج، بل يتباهى بالفوز بها حتى قبل أن يضربها!

مددت يدي إلى الزمن، أستجير به من رمضاء الخسائر بالنار التي استعرت في شبابي وأرغمتني على البكاء دون أن يدري بذلك أصدقائي ممن توهموا نجاحًا أحصل عليه أبدًا.

لذلك رحت إلى وزارة الثقافة عساها تخمد نيراني يوم أن وافقت على نشر كتابي الرابع (طائر الحقيقة) عام **1974** إذ بوزيرها طارق عزيز يرميني إلى السجن بعد قصة قصيرة عنوانها (سيدنا الخليفة) نشرتها مجلة (الموقف الأدبي) في سوريا، وكم هو مؤسف أن ذاك الكتاب الصغير منعوه من الدخول إلى بيوت العراقيين يوم أن تزامن توزيعه مع ظهور قصتي في دمشق، فقد شفطوه من المكتبات ومن الذاكرة في لمح البصر وصار مجرد كومة من الورق المبلل يمشي عليها عمال المطابع أيام الشتاء بعد هطول المطر الغزير الذي ملأ المخازن في أسوأ عاصفة حلت علينا في الشهر الثاني من عام **1975**.

لن أحكي عن أيام اعتقالي، فهي تحتاج إلى ثلاث روايات على أقل تقدير، الجزء الثالث منها سيحكي عن أشكال التعذيب في الغرف الانفرادية، والثاني سيقص حالات المهانة والاستخفاف والضرب بسبب أو دون سبب، أما الجزء الأول فهو متروك لمخيلة الإنسان عن مكان وراء الذاكرة وخلف الشمس ليس من أثر فيه للإنسانية على الإطلاق!

وبرغم ذلك بقيت على قيد الحياة والكتابة، أظنها –معذرة عن التباهي– معجزتي وعصاميتي في أن أصل المستحيل، يوم أن بعثت بكتابي الخامس

(موجز حياة شريف نادر) حتى ينشر في دمشق، بل وفي اتحاد الكتاب العرب الذي كان وراء اعتقالي يوم أن نشر لي (سيدنا الخليفة) في مجلته الوحيدة آنذاك!

ولم أقف عند هذا الحد من المشاكسة والتهور والعناد، بل أرسلت لهم أخطر قصصي عام **1978** تحت عنوان (لا تسرق الوردة رجاءً) بعد نشرهما معًا شعرتُ بأنني بدأت الحرب على سلطة القمع في بغداد، لكن العدو لم يأبه أبدًا، بما فعلت وبما كتبت ولم ينتبه إلى رصاصي ودباباتي وطائراتي، بل راح يغازلني يومًا بعد يوم، حتى كدتُ أسقط صريعًا لغواياته ومكارمة وإغراءاته وطيبة أقواله وأفعاله معي!

وحتى يثبت لي حسن نياته معي أسرع في طبع كتابي (مرة واحدة وإلى الأبد) عام **1979** وهي المجموعة القصصية الوحيدة التي طبعوها في أقل من شهرين طَوال تاريخ العراق في القرن العشرين ،بينما يتأخر طبع أي كتاب في دار الشؤون الثقافية ما بين ثلاثة أعوام إلى أربع سنوات مهما كان مستوى مبدعه أو مكانته!

شعرتُ بالسعادة لأنني أصبحت مهابًا ومحترمًا أمام المسؤولين، وأغرقني الغرور في بحيرة من التباهي والنرجسية، ولم أكن بالذكاء الذي يكفي حتى أكتشف اللعبة، إذا بي أسقط في بحبوحة من الرعاية لم أحلم بها ذات يوم، أمضي بطرًا إلى باريس ولندن وكازابلانكا والقاهرة في الدرجة الأولى على طائرة يرحب قبطانها بالأديب اللامع عبد الستار ناصر، ويرجو منه

قبول باقة الورد التي أحرجوني بها مع قنينة (وايت ليبل) أحتسيها مع مكعبات الثلج وأنا أهمس مع نفسي دون أن يدري بي بقية الركاب وأقول سرًا.

– تمنع من شميم عراء نجد فما بعد العشية من عرار.

لكن شميم نجد دام أكثر مما ظننت، وانهمرت خيرات البترول على قصصي وثيابي وجواز سفري، صار أي كتاب أذكر عنوانه يطبع لي قبل أن أصحو من نومي وخمريّ، وفي أقل من عامين طبعوا ثلاثة من كتبي، الشمس عراقية، وزهرة واحدة تكفي، وقصص بثياب المعركة، حتى أنني كررت القول ما بيني وبين جلدي.

– ليس ما أنت فيه غير أضغاث أحلام ستصحو منها بعد قليل! إذ ليس من المعقول طبع تلك الكمية من الصفحات في هذا الوقت المحصور بين ستمائة يوم وليلة فقط، بينما ينتظر أقرانك أربع سنوات حتى تنشر أعمالهم في المطابع نفسها!

وأيقنتُ يومها حجم (الفخ) الذي رموني إليه، كان على رجل فقير يشبهني غير أن يتحسس الوريد والمكان والشريان والدم الذي يسري بين العروق!

فجأة قلت لنفسي: أنت لست ذاك المبدع الخطير الذي يخافونه، ولست الكبير الذي يصغرون في حضرته، تأكد من المسافة التي تقطعها في الهواء،

وتذكر ما فعلوه بك أيام حجزك في غرفة تحت الأرض لم تكن بين جدرانها غير فأر يضحكون عليه!

***

نعم، سرقتني الملذات حينًا من الدهر، وفي لحظة ضعف أمام المكتسبات التي شاعت في بداية الثمانينيات، رأيت نفسي، أنا الفقير الملطخ بالأمنيات والأحلام التي لا تتحقق، أفكر بالكتابة عن كبرياء قائد فذ وعبقرية رئيس استثنائي (!) وكنت أعرف مع نفسي أنني بما أفعله، إنما أنتمي إلى جوقة الكذابين والطبالين وشعراء الزفة، وأن لا فرق بيني وبين ذاك المدعو (على الياسري) الذي أعطى تسعًا وخمسين صفة كبرى من صفات الأنبياء وألصقها بقائده (الضرورة) ثم أضاف ضعف ذلك من الصفات الربانية وقدمها هبة لأسياده الكبار!

أجل، أنا من ضحايا تلك الإغراءات، وكان ينبغي أن أحارب نفسي حتى لا أنكسر أمام جيوش الفتنة والمال وتسهيل نشر الكتب وتسهيل شؤون الحياة التي يحققها النظام، وكانت أعلى تلك الإغراءات مشاركتنا في المؤتمرات والمهرجانات الثقافية خارج الوطن وتمشية مهمة أسفارنا الشخصية إلى أرجاء العالم، بل الموافقة على منحنا حق السفر حتى في سنوات المنع التي عرفناها إبان حرب الخليج الأولى، إن النفس حقًا لأمارة بالسوء.

من الصعب فتح حساب مع النفس، لكنني لن أتوقف إلا حين أرى الروح وقد تخلصت من أدرانها ووساخاتها، وما هذه البداية سوى عود الكبريت الذي سيضيء بقية عمري، عساني أنقذ أعماقي مما علق بها من أخطاء لا أقول عنها غير أنها أخطائي وأنا مسؤول عنها، كيف أوهمني طمعي أن الحياة هي أن تكون أغنى من غيرك وأن الحياة هي أن تكون أقوى بما ملكت يداك؟!

هكذا مضيت إلى فخ صنعته بنفسي لنفسي، أرى اليوم أنني لم أستطع الفكاك من ذاك الفخ إلا بوعي أكبر وقرار أخطر عندما قلت لنفسي: هذا يكفي وعليك التعويض الآن، ولم يكن القرار مجرد كلمة نطقتُ بها على عجل، بل كان يعني ترك كل شيء خلف ظهري والفرار من الطغيان والأخطاء دفعة واحدة ودون رجعة وبلا ندم.

تركت الحنين واللهفة والتاريخ ومكان ولاديتي، وإذا كان البعض يظن الظنون بي عليه أن يفكر عشرات المرات بما يعنيه ترك البلاد والأصدقاء والأحبة والمعشوقات من النساء والأزقة والشوارع والمقاهي والبارات دون أن يمنعك ذلك من الانتكاس والتردد أو الخوف، بل العكس كان هو الذي جرى، فقد تمكنت بقوة لم أملكها ذات يوم في جسدي وعقلي من الخروج نهائيًا دون أن ألتفت إلى الوراء مطلقًا، فقد صار العقل في مكانه الصحيح وعاد الضمير إلى عرشه المكين.

قرار الخروج من الوطن دون عودة ليس مجرد فعل فائض عن الحاجة، إنه القرار الذي سيحكم أعصابك وإنسانيتك حتى آخر العمر، وإذا ما تمكن أديبنا المقيم في الوطن من محاسبة نفسه، سوف يرى أن البقاء مع القتلة والتسبيح بحمدهم ليس سوى خيانة لبلادنا المستباحة من الأقزام والحبيسة لدى القصابين، وأنه يكفي أي واحد منا سرقًا مجرد التفكير بالهروب منهم ومن سجونهم ومعتقلاتهم وعقولهم المتحجرة حتى إذا لم يستطيع إلى ذلك سبيلًا، يكفي التفكير كأضعف الإيمان، أما الذي يقرر ذلك ويفعله، فله أجر عظيم.

***

هناك مِن مَن يحاسبك على ما فعلت وعلى ما كتبت وعلى ما صنعت يداك يوم أمسكت القلم وقلت كلامًا يساهم في أمجاد الظالم، ولهم الحق في العتاب والمحاسبة، لكن الزمن وحده هو الحاكم على حقيقة كل واحد منا، ثمة من خرج للمتعة وملاحقة المال والنساء والخمور، ثم جاءه الوقت المناسب لادعاء البطولة على حساب من جاء بعده، وهناك من خرج في رحلة سياحية مع تأشيرات سفر إلى لندن وباريس ومدريد وجامايكا، ثم أتاه الحظ للعيش في واحدة من تلك المدن الجميلة، إذا به عند الحديث عن معاناة الغربة وعن النضال والتعذيب والمعتقلات يكون أول المناضلين وأول المعذبين في الأرض وأول الباحثين عن شمس الحرية، وكلنا نعرف بأمر ذاك الشاعر الذي عاش نصف حياته في خداع الناس ويجهر بالقول: إنه مطلوب للإعدام في وطنه، وأنه مطارد من رجال النظام حتى في

الغربة، وأنه مكتوب اسمه على لائحة التصفيات، بينما عاش حياته بين المتع اليومية في المواخير وأمضى أيامه بين الغفل النقدي وشراء الضمائر التي تكتب عنه لقاء بضع دولارات يسفحها على ذاك الهراء الذي صعد به إلى مستوى الصفوة من المبدعين العرب، حتى إذا ما جاءت شمس الحقيقة بعد غيابه كشفت أوراقه كلها وصار نسيًا منسيًا من أقرب الناس إليه.

ما كنت أنوي الدخول إلى معمعة المثالب، وما كان قراري أن أكتب في هذا المنحى، بل رجوت نفسي منذ البداية أن أحكي عن فشلي في الكتابة وعن تلك المسافات الشاسعة بين هذا الكائن الذي يجلس في جلدي وأولئك الكبار الذي قرأتهم منذ صباي.

تساءلتُ كثيرًا عن مدى أهمية البقاء في مقهى الكتابة وماذا يعني احتساء الشاي في حضرة (هرمان هسه) وأنت تحني رأسك بين يديه كما التلاميذ؟ وإذا ما جاءك أوسكار وايلد وأراد منك إحدى قصصك حتى يقرأ ما فيها من أسرار وشاعرية، ماذا سنعطيه وهو الذي كتب (صورة دوريان غراي)؟ بل ماذا ستقول وأنت الذي نشرت حتى اليوم أكثر من مائة وخمسين قصة قصيرة وأربع روايات دارت نيابة عنك حول العالم ولم يذكرها أحد في مقالة أو يحتويها في كتاب؟ أعني بذلك الكتاب الذي تستحقه والمقالة التي سترى نفسك فيها.

لماذا أخدع نفسي وأستمر في الكتابة كما يفعل أقراني في دمشق وعمان وبيروت والقاهرة والرباط وتونس والجزائر؟ ماذا أريد من الكتابة وهي تأخذ مني نصف صحتي وترميني مفلسًا على رصيف ذكرياتي؟ لماذا لا أعود مجرد قارئ يعشق جورجي أمادو وجوزير كونراد، ويذوب هوًا مع ثربانتس وسانت أوكزوبري ودوستويفسكي لويجي بيراند للو وغازنتزاكي، وأكتفي بما يمنحه لي ميغيل آتسورياس وألبير كامي وإيفو آندريتش من سحر وسعادة وامتلاء؟

أتذكر تلك السيدة البلجيكية التي رأت عشيقها الروائي وقد أغلق الباب عليه ثلاثة شهور دون أن يرى الغيوم والسحب الداكنة والأسواق والبشر، كيف أنها سألته: لماذا تعتزل الدنيا؟ فأجابها: إنني أكتب في رواية أحتاج إلى هدوء البال معها حتى أتمكن من السيطرة عليها، فما كان من عشيقته غير أن تقول: ولماذا ترهق نفسك في الكتابة إذا كانت الروايات مبذولة على الطرقات والأكشاك والأرصفة؟

وأنا اليوم أسأل نفسي كما فعلت تلك العاشقة البلجيكية: لماذا أدخل في سجون الرواية أو معتقلات القصة القصيرة ما دامت تلك الروايات والقصص الجميلة "على قفا من يشيل؟!".

ماذا أريد من الكتابة وأنا أعرف جيدًا بأنها مهنة لا تأتيك بشيء سوى الإفلاس والمتاعب؟ وإذا ما نظرت إلى شاشة التليفزيون على مدى سنة أو تزيد، فهل ترى من أحد يسأل عنك أو يلتفت إليك؟ من أنت؟ ماذا تعني

أعمالك القصصية والروائية؟ من ترى قرأ الكواش وبعد خراب البصرة وأبو الريش؟ من أنت حقًا؟ لا شيء غير اسم يتكرر في المجلات والصحف العربية الملغاة من ذاكرة الحرية والانتشار، محض اسم أنا، لا يعرفه الصبي ولا المراهق ولا الموظف ولا ربة البيت، تحاول أن تحكي عن هموم العالم، لكن العالم لا يأبه بك ثم تقنع نفسك أن البقاء لك بعد موتك، وأن الدنيا لا بد أن تعتذر عن نكرانها وسوء تصرفها ذات يوم، والحقيقة هي أن الناس في غفلة عن إبداعك وإبداع سواك، وما تفعله مع الأوراق لم يكن غير دق ناقوس في صحراء تمتد من الرمال إلى الرمال، ثم تكتشف في برهة خاطفة من الزمن أن تأليفك لتلك المنجزات التي تزيد على سبعة وثلاثين كتابًا لا توازي في لغة العصر أغنية واحدة تتعرى فيها "باسكال مشعلاني" وهي تسخر من تاريخك وأمنياتك وانتظاراتك وأحلامك واشتعالاتك وسهر لياليك، إذا بك تمضي نحو فراغ رهيب يتناسل عن فراغ رهيب يتشعب حول فراغ لا نهاية له، تمامًا كما السؤال السرمدي المخيف الذي يتكرر منذ طفولتنا "وماذا بعد الأرض والمجرات والنجوم والمساوات السبع؟".

وما الفائدة؟ نحن في كهف لا أحد يسمع فيه وما من أحد يرى، ومن الخير أن نكف عن الشكوى ما دامت في أحسن حالاتها مذلة، دعونا نسمع الضجيج الذي تبثه شاشات العالم وربما نضحك في الوقت نفسه من (دون كيخوتة) الذي أخطأ في حق نفسه يوم راح يحارب الطواحين من أجل إنقاذ الدنيا من الشياطين والأشباح واللصوص، فما من أحد يدري حقيقة ما نحن فيه!

كل واحد منا يحارب الطواحين على طريقته، ربما بالسيف أو السحر أو الكاراتيه أو الكتابة، والنتيجة واحدة، ثمة إحساس بضرورة أن نحارب الوهم الذي يلبسنا والضعف الذي نلبسه، وأرى أن كتابة القصة القصيرة أو الشعر أو الرواية تنقذنا من خوف جاثم على صدورنا، لاعب كرة القدم، مثلًا، يضرب الكرة بقوة عسى أن تصيب شباك خصمة فينقذ نفسه من الفشل، والفنان يرسم لوحة إذا ما نالت إعجاب الناس سينقذ نفسه من الفشل، والنجار إذا أبدع غرفة نوم فارهة ومريحة وجميلة سينقذ نفسه من الفشل، كل واحد في مشغله يحاول أن يمسك طوق النجاة في بحر الحياة العميق، وحتى المجنون له أسلوبه في إثبات نفسه أمام بقية المجانين.

أما بالنسبة لي، فأنا كاتب فاشل، وأفضل دليل على فشلي هو أنني أمضيت من عمري أربعين عامًا وأنا أكتب وأقرأ ثم أقرأ وأكتب، وأصدرتُ ما يقرب من أربعين كتابًا في بغداد والقاهرة وعمان ودمشق وبيروت، وبرغم ذلك لا أعرف ما يدور حولي من أسئلة وتناقضات وألغاز وأسرار وموبقات وأساليب الكتابة، ولم أحقق نصف ما حققه سارتر وماركيز وإيزابيل الليندي ودينو بوتزاتي، وما زلت أشعر بالخجل وأنا أقرأ إستيفان زفايج وديرك والكوت وشوساكو أندو وشولوخوف، وأرى أنه أزف الوقت حتى أقول: كفى.

عمان 2002/12/20

تفاحة نيوتن

ترى ما هو مصير الورق الذي كتبت عليه البشرية حضارتها؟ أعني ماذا سيحدث إذا ما طرأ تغيير شامل في مستوى حرارة الأرض؟

ليس من شكل أن درجة حرارة بغداد (مثلًا) لم تكن هكذا منذ خمسين سنة، وكذلك الحال في نواكشوط وأثينا ونيويورك ودبلن، وهذا يعني أن طبقة الأوزون على خلاف كبير مع كميات الورق التي ترتعش هلعًا من مصير غامض ينتظرها في وقت لاحق.

هذا واحد من كوابيس اليقظة التي تحاصرني بين يوم وآخر، ذلك أن الحضارة لا تكمن في الصخر المنحوت ولا في عمران المدن ولا في التطور الهائل في تكنولوجيا المعلومات فحسب، بل تراها حاضرة أولًا في مليارات الصفحات المكتوبة بقلم شولوخوف وطاغور وطه حسين وبرناردشو والمتنبي ودوستويفسكي ومارك توين ورفاعة الطهطاوي وهانيريش بول وهرمان هسة ونجيب محفوظ وفرانسوا موريك وأنطون تشيخوف وفرانز كافكا وألبير كامي، وآلاف غيرهم في ألمانيا والقاهرة وجنوب أفريقيا وفرنسا وأميركا وأيسلندا وبغداد والدنمارك وفي كل شعوب الكرة الأرضية.

وإذا ما احترقت القصائد والقصص والروايات ذات ساعة من عمر الأرض، كيف ستبدو حينها الحياة دون الإرث العظيم الذي تركه انا تول فرانس ورومان رولان وأدونيس وعبد الرحمن الكواكبي وجان بول سارتر وجون شتاينبك ومحمد مندور وقاسم أمين وجرجي زيدان ووليم فوكنر وأوسكار وايلد وجيمس جويس وأبو العلاء المعري وجراهام جرين وسومرست موم ونزار قباني وديك الجن وتشارلز ديكنز وليو تولستوي؟

والمحنة لا تكمن في زيادة حرارة الأرض وحدها، بل تكمن في الحروب التي يصنعها البشر والتي تعمل على حرق ملايين الهكتارات من التربة الصالحة للزراعة، ولا يدري الإنسان أنه يمشي بنفسه إلى المشنقة التي ينسج حبالها بيديه ثم يضعها حول رقبته (بنفسه) وينتهي كل شيء!

***

أنا حقًا أفكر في اليوم الذي ستحرق فيه الأوراق والكتب، وهو ليس باليوم المستحيل موازاة ما نرى من جنون وأسلحة وأمراض العظمة التي تسللت إلى كل شبر في هذا العالم الجميل المحاط بالسادة الكبار الذين يظنون أن الله ترك البلاد والعباد لهم وتحت رحمتهم ومزاجهم وأعطاهم الحق كاملًا في إدارة دفة الحياة ودفة الموت معًا!

سيأتي اليوم الذي تختفي فيه "آنا كارنينا" ويجف "الدون الهادئ" وتسقط "صورة دوريان غراي" عن جدار الذاكرة، وقد يتهدم "قصر الشوق"

ونسقط ذعرًا في المسافة ما "بين القصرين" و"السكرية" ولا يبقى في "مزرعة الحيوان" غير "عناقيد الغضب" وخصام أبدي بين "الأخوة كرامازوف".

ها نحن منذ عام "1984" والخوف يداهمنا في كل الطرقات بعد أن رحل عنا جورج أورويل وهو يصرخ في روايته المرعبة "ليس من حل أمامكم غير الثورة على الخوف المزروع بين ثيابكم" والحرارة تعلو سنة بعد سنة والذعر لا يفارق الثياب ولا المسامات مع أننا نزداد قوة بعد كل مرة نقرأ فيها غابرييل غارسيا ماركيز وبراتراند رسل وإيزابيل الليندي ونادين غورديمير، ونشعر بنشوة النصر ونحن نكرر قصائد طرفة بن العبد وطفيل بن عوف وحاتم الطائي والمهلهل، لكن سرعان ما يرجع الخوف إلى أجسادنا بعد أن نغلق الكتاب على آخر سطر فيه.

نعم، نحن بحاجة إلى القراءة حتى نعود إلى جوهر إنسانيتنا التي سفحوها بين الحروب والمعتقلات وأخبار التلفزيون وإعلانات الشامبو والشيكولاتة والكيوتكس، بحاجة حقيقية إلى ثلاثين جان بول سارتر ومذكرات بابلو نيرودا وزمان الكوليرا مع الحب الذي غمرنا به غارسيا ماركيز، نحن بأمس الرغبة في قراءة أولئك العمالقة الذي صاروا ملح طعامنا الروحي وشمعة دربنا نحو المستقبل، إنهم الرد الماحق على شياطين الحرب وعلى أساتذة القتل وخبراء المذابح والتعذيب.

***

ليس غير القراءة من سلاح نرد به كيد الأمراض المعاصرة التي تحاصرنا بعد كل نشرة أخبار وبعد كل إعلان وبعد كل خطبة يتلوها رئيس يكرر "أعاهدكم أن الغد سيكون أفضل ألف مرة من اليوم الذي نحن فيه، إننا نعمل من أجل غدٍ مشرق عظيم"، ويأتي الغد، ولا أحد يحكي عن السواد الذي ملأ الدنيا وراح يزحف نحو الرئتين!

درجة الحرارة تزداد يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر وسنة بعد أخرى، والضحية الأولى تحت غضب الشمس العارم ستكون الورق الذي كتبنا عليه أعظم الحضارات، سيحترق في غمضة عين جبران خليل جبران وآرنست همنغواي وسعدي يوسف وفرجينيا وولف وكاترين مانسفيلد وعبد الستار ناصر وايفو آندريتش وشوساكو أندو والخطيئة ويوسف إدريس ولوجي بيراندللو والطيب صالح وعبد الرحمن منيف ومحمود درويش، ولن يبقى من تراثهم غير رماد يطير حول مجرات الكون يستغيث ويبكي حضارة ما عرفنا كيف نحميها من الخراب!

ألا يمكن التفكير منذ الآن، في حل يخفف الرعب الذي سيأتي إلينا على حين غفلة؟ ألا يمكن للبشرية كخطوة أولى أن تتخلص من كافة ما لديها من سلاح؟ هكذا مرة واحدة ونرى العالم دون صواريخ ولا بارجات ولا قنابل ولا دبابات ولا جمرة خبيثة ولا سموم، تمامًا كما كانت الأرض أيام بكارتها.

وأعرف أنها حماقة كبرى أن أفكر بهذه الطريقة الطريفة التي لا يصدقها عاقل أو مجنون، ولكن أعظم إنجازات الإنسان بدأت من حماقة مضحكة، منذ تفاحة السيد (نيوتن) وحتى كتابة هذا الكلام الذي سقط كما التفاحة من حنجرتي.

هكذا يتأجل الموت!

لماذا تكتب؟

كان هذا هو السؤال الذي طرحته إحدى المجلات الأدبية على عشرات المبدعين الكبار شرقًا وغربًا، ثم أصدرت المجلة نفسها في كتاب يحمل عنوان "كبار الكتاب لماذا يكتبون؟" وجاءت إجاباتهم على أربع أو خمس صفحات ومنهم من كتب أكثر من ذلك.

أتذكر من قال: "أنا أكتب حتى أعثر على مكان لي في سجل الإنسانية" ومنهم من كتب يقول: "لا مهنة عندي غير الكتابة ولا أظنني أعرف أو سأعرف عملًا آخر يمكنه أخذ الوقت مني بهذه السرعة".

أما كاترين مانسفيلد فقد أجابت على السؤال بسؤال "وهل ينبغي أن أعرف لماذا أكتب؟ أتذكر أنني صحوت ذات ليلة ورحت أكتب شيئًا في دفتر ملاحظاتي ما كنت أظنه صالحًا للنشر، لكنني رأيته يحمل اسمي في إحدى صحف المساء ومن يومها وأنا أكتب".

لكن غابرييل غارسيا ماركيز كان الوحيد بين أولئك الكبار من قال شيئًا مفاجئًا لم يخطر على بال أحد، إذ قال: "أنا أكتب حتى يحبني أصدقائي" وصار تصريحه فيما بعد طوق نجاة وتعويذة وبوصيلة لمن لا يعرف السبب

وراء رغبته في الكتابة، إذ تكرر قول غارسيا ماركيز أكثر من مرة مع أكثر من مبدع عربي "معروف"!

والمشكلة الآن هي أن ما قاله ماركيز قد لا يكون صحيحًا تمامًا، إذ من غير المعقول أن يكتب المبدع آلاف الصفحات وعشرات الروايات من أجل الفوز بمحبة الأصدقاء لا سيما وأنه (محبوب) منهم حتى قبل أن يكتب تلك الأعمال الجميلة.

بينما تكمن المشكلة فيمن قلدوه وراحوا يكررون (اعترافه) دون حساب لحقيقة ما قالوه أو عدم صحته أصلًا!

وهذا الأمر يعود بنا إلى (سرقة الأفكار) و(سرقة المشاريع القصصية) التي تكرر في الأدب العربي بخاصة، طَوال السنوات التي مرت من أعمارنا والتي قرأنا عنها أو التي كشفنا المستور من أسرارها في السينما والمسرح وفي الروايات والقصص القصيرة وحتى في الشعر أيضًا!

ذلك أن الكاتب العربي عمومًا يشعر بالتوجس وربما النقص أمام هيبة الكاتب من جنسيات أخرى، وهذا نفسه السبب الذي دفع بالروائي المصري أحمد رجب إلى كتابة رواية عنوانها "الهواء الأسود" كتب على غلافها الأول اسم أديب بريطاني لا وجود له، وكتب تحت اسم ذاك الأديب "ترجمة أحمد رجب" وما أن ظهرت الرواية في المكتبات وفي أكشاك الصحف والمجلات حتى تناولها كبار النقاد العرب بالفحص والنقد والزغاريد والمدح الذي لم تحصل عليه أيما رواية عربية في تاريخ "مصر"!

وبعد أن كثرت المقالات والتبريكات والاحتفالات في مدح الهواء الأسود ظهر المؤلف الحقيقي في مجلة روز اليوسف ليعترف بالحقيقة التي كانت أقرب شبهًا بقنبلة انفجرت في الشارع الثقافي المصري حين قال: إن هذه الرواية إنما هي من تأليفي أنا وليست مترجمة كما ظن الكثير من نقاد المدح الجاهز، وقال أيضًا بأنه كان يعرف أن الرواية إذا ما ظهرت باسمه فما من أحد سيكتب عنها أو يلتفت إليها، وكانت "فضيحة" بجلاجل كما يقول الأخوة هناك في ربوع مصر المحروسة!

والحق يقال إن أحمد رجب –وهو كاتب ساخر معروف بمقالاته الجارحة– لو كان قد نشر رواية الهواء الأسود باسمه كما اعترف بذلك لما كان لها ذاك الحضور الاحتفائي الكبير، لكن الشعور بالتوجس أو النقص أمام هيبة المؤلف الأجنبي هي التي فعلت فعلها في النفوس وهي التي رسمت مقاييس الجودة، وعادة ما كنا نطلق على ذلك (عقدة الخواجا).

وهذا الموضوع يرجع بي إلى الصديق علي حداد مؤلف رواية (العيس الذي رأى نفسه) حيث وجدنا جميع أبطاله يحملون أسماء ليست عربية مثل "جوان" و"جيمس" وسوزان، وكلهم أيضًا ينتقلون ما بين باريس ونيس ومارسيليا ولندن وروما وأمستردام، مع أنه (هو نفسه) لم يسافر إلى أي بلد من تلك البلدان البعيدة عن بغداد، وحين سألته عن السبب الذي دفعه لكتابة عمل كهذا تدور أحداثه في شوارع أوروبا وحاناتها وأسواقها قال بالحرف الواحد:

– وهل يشعر القارئ بالمتعة إذا كان اسم بطل الرواية "عباس" أو "جعفر" أو "حنتوش"؟

وقال أيضًا: ما دام بطل القصة من جنسية غير جنسيتي فهذا يمنحني الحرية والحركة ويساعدني على التخلص من رقابة الشرطة ورقابة المطبوعات.

يومها سألته "لماذا تكتب يا علي؟" فقال بسرعة كمن حظ الجواب سلفًا:

– أكتب حتى أتسلى وأضحك مع أبطالي وخاصة النساء، (.....) ملك يدي وأنا قائدهم وقبطانهم الوحيد ما دمت كما ترى غير قادر على تحريك سواهم!

عندما قرأت ذاك الكتاب "كبار الكتاب لماذا يكتبون؟" شعرت أن كل مبدع منهم قال شيئًا مما أود البوح به، فالكتابة كما يقول "أنطونيو غالا" تشعرني بالقوة وتسحق الخوف بين ضلوعي، وهي في الوقت نفسه تؤجل ساعة موتي كما يقول "نابيول" الحائز على نوبل عام **2001** كما أن الكتابة تفتح أبواب العالم أمام عيني وترحمني من سفاسف ما يحيط بالأرض من بلاهات وأخطاء وجرائم، إلى جانب أنها تحقق لي المتعة في عمق معانيها وأسمى حالاتها.

ولهذا نكتب.

دعونا نروي ما حل بنا!

في كل مرة أقرأ فيها مذكرات أديب كبير أتساءل (لماذا لا يكتب مبدعونا مذاكراتهم؟).

والآن، وقد أنهيت قراءة الجزء الأول من مذكرات غابرييل غارسيا ماركيز والتي عنونها "عشت لأروي" أعود إلى السؤال نفسه: أين أديبنا العربي من هذه الصراحة وتلك الجرأة؟ ما هي تجاربه على الأرض وتحت السماء؟ ما مدى الحرية المسموحة له حتى يكتب كلامًا يشبه ما جاء في مذكرات غارسيا ماركيز أو نصف الحرية التي عرفناها في بوح "إيزابيل الليندي" والتي كتبتها قرب سرير ابنتها المريضة "باولا"؟!

ربما قرأنا (سبعون) ميخائيل نعيمة، وقرأنا هامش سيرة طه حسين، وكذلك قصة نزار قباني مع الشعر وهي في الوقت نفسه قصة حياته، لكنها كتابات محصنة من داخل الذاكرة وخارجها، تشعر وأنت تقرأ السطور بأنها تقف عند إشارات حمراء صارمة لا تتجاوزها، وإذا ما انتهيت منها ستعرف حتمًا أن المستور الذي لم يكتب هو أكبر حجمًا من المكشوف المتيسر الذي يقال ويكتب، بينما الأديب في العالم حين يقرر كتابة مذكراته فما من شيء يمنعه من الدخول إلى أدغال الماضي وعيوبه وخفاياه، إنه يكتب دون ثياب تستر العورات ودون رقابة أو تحفظ أو خوف مما سيقول، ذلك أن قرار الاعتراف لا يأتي عن نزوة أو احتيال

على الذات، بل هو قرار الحياة نفسها التي عاشها الكاتب المبدع ورأى في روايتها ما ينفع الناس والتاريخ، وفي المقام الأول أن يعترف بما هو مخزون في داخله من تجارب الأسفار والنساء والمثالب ومحطات المتعة والأخطاء والحماقات ودروس ما فات عليه من موبقات وجرائم صغيرة يرى في كتابتها حالة من الخلاص تشبه الاعتراف في حضرة الكاهن أو في حضرة الإمام.

الأمر غير هذا بالنسبة لأديبنا العربي المغلوب على أمره طَوال مئات السنين، فهو يعرف مسبقًا أن عليه أولًا عدم التحرش بالأحياء لئلا تصب "العشيرة" جام غضبها ونيران حقدها عليه وعلى اليوم الذي فكر فيه أن يكتب شيئًا غير مرغوب فيه، وهو يعرف أيضًا أن الكتابة في شؤون الدين غير مسموح بها أبدًا، والكتابة في السياسة "دعك من المصائب أحسن"، أما الكتابة في خبايا الجنس وشعابه فهو الموت على أقرب ناصية من أي شارع خلفي يتربص فيه كل من جاء ذكره أو مسته نسمة من نسائمه.

لقد قال غارسيا ماركيز أشياءً في الجنس والدين والسياسة إذا ما كتبها عراقي أو ليبي أو جزائري لما عثر على "قبر" يأويه بعد قتله، وكذلك الحال بالنسبة لمذكرات الكبار أمثال "هرمان هسة" و"إيزابيل الليندي" و"بابلو نيرودا" و"كولن ويلسن" وغيرهم ممن أنعش حياتنا بجرأته وصراحته، والذين عادة ما نتذكر حين نقرأ لهم أن الحياة غير عادلة أبدًا مع المبدع العربي المحكوم بالمعتلات والغرف الانفرادية والشرطة والرقابة

والتهديد في كل مرة يكتب فيها أو يفكر أن يكتب فيها شيئًا على عكس المألوف أو (المرغوب) به رسميًا!

ومن هنا سيبقى أديبًا متخلفًا خائفًا مرعوبًا أمام الرياح السوداء تهب عليه من أنظمة البلاهة والتعسف والقمع ومحاكم التفتيش.

* *

ذات يوم أغبر –والحرب دائرة بين إيران والعراق– اجتمع بنا –"كتاب القصة القصيرة والرواية في بغداد"– مسؤول كبير وطلب منا الكتابة عن الحرب، وراح يكرر ضرورة وصف المقاتل العراقي بالبطولة وكيف أنه لا يخاف من أي شيء في ساحة المعارك، فما كان مني غير القول "إن الخوف كما نعرف ذلك بالتأكيد غريزة في الإنسان وليس من الممكن نكران هذه الغريزة عند الكتابة عن المقاتل في جبهة الحرب".

فما كان من ذاك المسؤول الكبير سوى القول بكثير من الصرامة والبلاهة:

– لا غريزة ولا بطيخ، نحن في حالة حرب والمقاتل العراقي (بطل) ولا شأن له بالغرائز التافهة.

فكيف يمكن للمبدع في العراق أن يكتب مذكراته ورواياته ومقالاته وقصائده إذا كانت عقلية المسؤولين بهذا المستوى الكارثي المضحك؟

بل سوف أزيد على ذلك ما جاءنا ذات مرة في واحدة من القصص القصيرة ورد فيها قول المؤلف "ذهبت إلى السوق بحثًا عن البصل ولم أفهم سر ما جرى، فقد اختفى البصل تمامًا في طول بغداد وعرضها" إذا برئيس التحرير يشطب هذا الكلام "غير المسموح به" لتظهر القصة في مجلة "الطليعة الأدبية" دون بصل ولا أسواق وطبعًا بلا مشاكل أو "دوخة راس" وأسئلة!

وأيام كنت رئيسًا لتحرير مجلة "فنون" وهي فترة من الزمن لم تستمر أكثر من أربعة شهور، وصلتني مقالة مدح عن رئيس البلاد غير صالحة للنشر، بسبب أسلوبها المرتبك وعبارتها الجوفاء الرديئة وسوء استخدام مفردات الهجينة، ولم تكن تلك المقالة أكثر من إنشاء مدرسي للصف الرابع الثانوي مع أخطاء إملائية لا يغفرها أحد مهما كانت مسؤوليته عن النشر!

ولم أنشرها دون ريب، بل رميتها إلى سلة المهملات بعد أن مزقتها إلى أشراء صغيرة دون أيما أسف عليها أو على كاتبها، إذا بي بعد أقل من شهرين أتلقى المقالة نفسها عن طريق البريد الوزاري وعليها هامش يقول "تنشر هذه المقالة في أقرب عدد من المجلة" وبتوقيع وزير الثقافة والإعلام آنذاك.

ولم أستطع برغم ذلك المجازفة بنشرها مع أنني أعرف ما يمكن أن يحدث لي إذا امتنعت عن تنفيذ الأوامر الرسمية،

ذهبت يومها إلى وكيل الوزارة "المرحوم عبد الأمير معلة" وأخبرته بحكم الصداقة أن هذه المقالة غير صالحة للنشر بالاعتبارات الثقافية والإبداعية كلها، لكن وكيل الوزارة، وهو شخص مرعوب مثل بقية أقرانه في دولة الخوف، قال بالحرف الواحد:

– وهل تراها المقالة الوحيدة التي تنشر وهي غير صالحة للنشر؟ ادفعها إلى المطبعة ودعنا من المثاليات!

وعندما رأيت نفسي في جب مظلم سحيق لا نهاية له، تساءلت حينها عما سأفعل والقضية كما وصلت إليه صارت مثل "بلاع الموس" فقلت لنفسي: والله العظيم لن أنشرها مهما كانت النتائج.

وفعلًا، تمكنت من تأخير نشرها ثلاثة أعداد من المجلة، وهي مجلة أسبوعية كان لها صداها الطيب في الوسط الفني، وإذا بي أرى في بريد الصباح من يخبرني أن المقالة ستنشر في العدد القادم دون (موافقتي).

وتحرك يومها العصب الخامس في جسدي عند أعلى رأسي، فذهبت إلى المطبعة ورأيت المقالة "مصفوفة" تحت بنط عريض ملون يقول "العصر الذهبي للقائد العظيم" بقلم الكاتب الذي لا يعرف الفروق الجسيمة بين الناقة والأناقة!

وأخبرته أن هذه المقالة جاءت سهوًا إلى المطبعة، وأن عليهم عدم نشرها، وتم أمامي ما طلبت منه، حتى إذا ما صدر العدد اللاحق من "فنون" ولم

تكن فيه المقالة ولا العصر الذهبي للقائد العظيم، رن تليفوني الخاص وخلفه صوت يهددني دون تهذيب ويقول:

– المقالة ستنشر غصبًا عنك وعن أجدادك، من تظن نفسك يا (.....)؟ أنت منذ اليوم لست رئيسًا لتحرير المجلة وعليك أن تغادر المكان فورًا!

يومها أيقنت أن الحياة مع الصحافة غير ممكنة، وأننا نكذب على أنفسنا عندما نتوهم أي خيط من خيوط الديمقراطية، وأن الشعار الزائف الذي ترفعه الحكومة عن حرية الصحافة وصحافة الحريات ليس سوى أكذوبة لخداع الجماهير.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل رموني إلى جبهة القتال بعد أن منحوني عفوًا من المشاركة في الحرب!

يومها أيقنت كم كان مستوى سذاجتي وأنا أفكر في أنني قادر على فرض رأيي وفرض قراراتي على تلك المجلة البائسة التي شطبوها من ذاكرة القراء بعد خمسة شهور من خروجي خلف أسوارها.

فهل يمكن بعد هذا كله أن أفكر "لماذا لا يكتب مبدعونا مذكراتهم" إذا كانت الكتابة قد صارت محض "محظية" في بلاد الخنازير ومجرد أنثى يغتصبونها وقتما يشاؤون؟!

كم أتمنى لو أنني تخلصت يومها من عفويتي وبلاهتي وطيبة قلبي وسذاجتي حتى أفهم الحقيقة ولو مرة واحدة في حياتي.

يقال إن السفينة تغرق إذا كان قبطانها بلا بوصلة، وأنا طول عمري أركب سفينتي بلا بوصلة ولا أعرف حقًا إلى أين سأمضي إذا ما كتبت مذكراتي؟!

فهرس الكتاب

الإهداء 4
في مقدمة شارع المتنبي 5
القسم الأول .. في نقد الكتب 7
جورج أورويل في أول أعماله 9
جورج أورويل في أول أعماله 15
نساء نوبل 21
إنها حفلة التيس 33
فتحية العسال في حضن العمر 39
قصص ضائعة من ذاكرة ماركيز 45
صهيل الأسئلة 51
ماذا عن القصص الإيطالي 57
القافلة الأخيرة 69
الحياة ليست سيئة دائمًا 75
من يشتري أوهامنا الشرقية؟! 81
الكتابة في تموز لا ثياب عليها! 87
ليلة القبض على الأخطاء 93
حكايا وقصائد موسى حوامدة 99
انتفاضة الأقصى وقرن من الصراع 107
مائة سنة وربما أكثر 113

بغداد في الستينيات 119
تركات لا وريث لها 125
القسم الثاني .. في ورشة الكتابة 131
حكاية رواية ضائعة 133
المدينة هي التي تسكن فينا 145
عجائب بالجملة! 151
الحياة بعد الموت! 157
يأتي الحوار بما لا تشتهي السفن! 163
جريمة قتل الكتاب! 169
قبل فوات الأوان! 175
بيانات أدبية هاجرت! 181
إهداءات الكتب 187
الشكوى لغير الله...! 193
البناء التحتي لإبداعنا 199
ماذا تعني الرواية؟! 205
محاضرة أنا جمهورها! 211
أنا كاتب فاشل 225
تفاحة نيوتن 239
هكذا يتأجل الموت! 245
دعونا نروي ما حل بنا! 249